التربية الإسلامية

تأليف : محمد عطية الإبراشي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

تمهيد عن التربية الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين • وبعد فلا يستطيع أحد من المربين والمؤرخين أن ينكر ان التربية الاسلامية هى الاساس المتين لحضارة المسلمين. والمثل العليا في تلك التربية تتفق مع الاتجاهات الحديثة فى عالم التربية اليوم فقد قدس الاسلام العلم والعلماء ، وسما بالعلم الى درجة العبادة ، وعنى العناية التامة بجميع أنواع التربية ، وخاصة التربية الروحية والدينية والخلقية ونادى بالحرية والمساواة وتكافؤ الفرص بين الاغنياء والفقراء فى التعليم، وقضى على نظام الطبقات وفرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ، واعطاهما كل وسيلة للتعلم، اذا وجدت لديهما الرغبة فى العلم والاقبال عليه •

وقد فتحت المساجد والمعاهد ودور العلم والحكمة ودور الكتب ، والحلقات الدراسية ، والمنتديات الادبية والعلمية أمام

الطلاب ، للتعلم والدراسة والبحث • وقدمت اليهم الدولة الاسلامية كل ما يحتاجون اليه ، من طعام ومسكن وعلاج ومساعدات مالية لتمكنهم من المعيشة فى الحياة والتفرغ لطلب العلم •

واننا لا نفخر اذا قلنا : ان مبادىء التربية الحديثة التى نادينا بها فى منتصف القرن العشرين ، ولم تستطع الدول المتمدينة تنفيذها كلها حتى اليوم قد روعيت ونفذت فى التربية الاسلامية ، فى عصورها الذهبية ، قبل أن تخلق التربية الحديثة بمئات السنين •

ومن تلك المبادىء المثالية : فى التربية الاسلامية نذكر بايجاز : التربية الاستقلالية والاعتماد على النفس فى التعلم والحرية والديمقراطية فى التعليم ، ونظام التعليم الفردى ، ومراعاة الفروق الفردية بين الاطفال فى التعليم والتدريس وملاحظة الميول والاستعدادات الفطرية للمتعلمين واختبار ذكائهم ومخاطبتهم على قدر عقولهم وحسن معاملتهم والرفق بهم والعناية بالتربية الخلقية ، وتشجيع الرحلات العلمية والاهتمام بالخطابة والمناظرات والتربية اللسانية والاكثار من دور الكتب ، وتزويدها بما يمكن من الكتب القيمة والمراجع النادرة ، وتشجيع الطلاب على الانتفاع بما فيها من ذخائر نفيسة والمثابرة على الدراسة والبحث والتعليم من المهد الى اللحد •

ولا تعجب اذا سمعت أن وظيفة المعيد التى تجدها اليوم فى الكليات والجامعات كانت متبعة فى المعاهد الاسلامية فى عصورها الذهبية وان نظام الجامعات الشعبية مقتبس من التربية الاسلامية ، فقد كان طلب العلم لدى المسلمين غير مقيد بشروط استعمارية فولاذية واعمار محددة وشهادات معينة ودرجات معدودة • وكانت ابواب المساجد والمعاهد الدراسية مفتوحة لجميع الراغبين فى العلم والتعلم •

ولكن بؤسفنا أن نقول : ان المؤرخين والأدباء والفقهاء وفلاسفة الاسلام لم يعنوا فى القرون الوسطى بالتأليف فى التربية الاسلامية العناية التى تستحقها فى حين أنهم كتبوا وأسهبوا وأجادوا الكتابة عن الحضارة الاسلامية والانتصارات

الحربية والشئون الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الاسلام • فقد تقرأ كتابا عن نظام الملك أو صلاح الدين الأيوبى ، فلا تجد الا قليلا عما انشاه هذا أو ذاك من المدارس ودور العلم ، أو ما قام به من اصلاحات فى التربية والتعليم فى الوقت الذى نجد فيه كتابة مسهبة عن تاريخ حياة كل منهما وأعماله السياسية وحروبه العسكرية •

لهذا كله يجد الباحث صعوبة كبيرة اذا أراد أن يكتب عن التربية فى الاسلام فقد يقرأ كثيرا من الكتب العربية والأدبية والتاريخية والسياسية القديمة فلا يجد فيها الا فصولا متفرقة وأبوابا محدودة ونصائح مبعثرة، ورسائل معينة تتعلق بالمعلم والمتعلم أو تتصل من قريب أو بعيد بالتربية والتعليم• وقد يحتاج الى كثير من المراجع لكتابة أى موضوع من موضوعات التربية الاسلامية •

ومع هذا لا يستطيع أحد أن ينكر أن للعرب والمسلمين كل الفضل على الغرب والغربيين وأن للعلوم العربية والحضارة الاسلامية أثرا كبيرا فى النهضة الاوربية الحالية فقد نقل الاغريق ـ وهم اليونانيون القدماء ـ العلوم والثقافة العربية والمدنية الاسلامية والفنون الشرقية، بعد أن ازدهرت وارتفعت ونضجت وأثرت على أيدى علماء الاسلام وفلاسفته، الى اوربا فى عصورها المظلمة ، فى القرون الوسطى • فللعرب والاسلام والشرق قديما كل الفضل فى نشر العلم والثقافة والحضارة والفن فى الغرب واوربا الحالية فقد كان للتربية الاسلامية أكبر الأثر فى النهوض بكل أنواع التربية بما اقتبس منها من المبادىء المثالية فى الدين والأخلاق ، ومراعاة النواحى الانسانية والاجتماعية والتعاونية ، كالاخاء والحرية والمساواة والعدالة وتكافؤ الفرص ، والوحدة الروحية بين المسلمين فى الامبراطورية الاسلامية العظيمة • ولا عجب، فعلى هذه الأسس القوية والقواعد الذهبية أسست التربية الاسلامية فى عصورها الأولى •

وقد راعيت فى تأليف هذا الكتاب المثل العليا التى ينادى بها دائما قائدنا الملهم ورئيسنا المحبوب جمال عبد الناصر •

واعتقد تمام الاعتقاد أن التربية الاسلامية ستنال ما تستحقه من العناية فى هذا العهد الميمون • وبهذا المجهود المتواضع أرجو أن أكون قد قمت ببعض الواجب نحو الاسلام وآمل أن يجد القارىء فى هذا الكتاب ما يشبع رغبته ، ويفتح سبل البحث أمامه •

والله أسأل أن يعيد للاسلام مجده الماضى ومبادئه المثالية وحضارته الخالدة انه سميع مجيب ••

المؤلف

الفصل الأول

١ ـ اغراض التربية الاسلامية

ان التربية الخلقية هى روح التربية الاسلامية ، وقد أجمع الاسلام على أن التربية الخلقية هى روح التربية الاسلامية · والوصول الى الخلق الكامل هو الغرض الحقيقى من التربية · وليس معنى هذا أن نقلل من العناية بالتربية الجسمية أو العقلية أو العلمية أو العملية · بل معناه أن نعنى بالتربية الخلقية كما نعنى بالانواع الأخرى من التربية فالطفل فى حاجة الى قوة فى الجسم والعقل والعلم والعمل ، وتربية الخلق والوجدان والارادة والذوق والشخصية ·

وقد اتفق علماء التربية الاسلامية على أنه ليس الغرض من التربية والتعليم حشو أذهان المتعلمين بالمعلومات وتعليمهم من المواد الدراسية ما لم يعلموا ، بل الغرض أن نهذب أخلاقهم ونربى أرواحهم ، ونبث فيهم الفضيلة ، ونعودهم الآداب السامية ، ونعدهم لحياة طاهرة كلها اخلاص وطهارة · فالغرض الأول والأسمى من التربية الاسلامية تهذيب الخلق ، وتربية الروح · وكل درس يجب أن يكون درس أخلاق· وكل معلم يجب أن يراعى الأخلاق · وكل مؤدب يجب أن يفكر فى الاخلاق الدينية قبل أى شىء آخر · والأخلاق الدينية هى الأخلاق المثالية الكاملة· والخلق النبيل عماد التربية فى الاسلام · ويرى الغزالى : ان الغرض من التربية التقرب الى الله دون الرياسة والمباهاة وألا يقصد المتعلم بالتعلم الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران · وهو لا يخرج عن التربية الخلقية ·

ومن الممكن أن نلخص الغرض الأساسى من التربية الاسلامية فى كلمة واحدة هى :

« **الفضيلة** » ·

٢ ـ العناية بالدين والدنيا معا :

لم يكن أفق الاسلام ضيقا فى النظر الى اغراض التربية فلم يقصر التربية على الناحية الدينية ولم يقصرها على التربية الدنيوية بل نادى

الرسول الكريم حاثا كل فرد من الأمة الاسلامية بالعمل لدينه ودنياه معا ، حيث قال :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» فلم يفكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا وحدها أو الدين وحده ولكنه فكر فى العمل لهما معا بدون اهمال للعالم الدنيوى أو العالم الدينى ٠

٣ ـ العناية بالنواحى النفعية :

كما عنيت التربية الاسلامية بالنواحى الدينية والخلقية والروحية فى التربية والتعليم لم تهمل العناية بالنواحىالنفعية فى معاهدها ومناهجها. ويتضح هذا الغرض من كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى الولاة : « أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل ، وما حسن من الشعر » فعمر يأمر بتعليم الاولاد السباحة والعوم والفروسية والرياضة البدنية والمهارة الحربية والعناية باللغة العربية ، ورواية الأمثال السائرة والشعر الحسن ٠ وان اثر علماء الاسلام فى النهضة العلمية لا يستطيع أن ينكره الا كل مكابر متعصب ٠ قال «مونرو» فى كتابه : «تاريخ التربية» : « ففى الطب والجراحة وعلم العقاقير والفلك ، وعلم وظائف الاعضاء ، وصل المسلمون الى اختراعات هامة ، واخترعوا ساعة البندول ، وعلموا أوربا استعمال البوصلة والبارود » ٠

فالتربية الاسلامية لم تكن كلها دينية وخلقية وروحية ولكن هذه الناحية كانت مسيطرة على الناحية النفعية ٠ ولم تكن فى أساسها مادية بل كانت المادة أو كسب الرزق أمرا عرضيا فى الحياة لم يقصد الكسب لذاته بل كان أمرا ثانويا فى التعليم ٠ وقد كان من رأى الفارابى وابن سينا واخوان الصفا أن الكمال الانسانى لا يتحقق الا بالتوفيق بين الدين والعلم ٠

٤ ـ دراسة العلم لذات العلم :

كان طلاب العلم من المسلمين يدرسونه لذاته فهو فى نظرهم ألذ شىء فى الحياة ، والانسان محب للاطلاع بفطرته ، لهذا عنى فلاسفة الاسلام بدراسة كثير من العلوم والآداب والفنون ليشبعوا ما لدى الطالب

من ميل فطرى الى حب الاطلاع والمعرفة · وهذه هى التربية المثالية حيث يدرس الطالب العلم لذات العلم والأدب لذات الأدب والفن لأن فى هـذا لذة علمية أو أدبية أو فنية لا نظير لها · قال الحـاج خليفـة فى كشف الظنون (١) :

والعـلم ألذ الأشياء وأفضلها ·· وقال فى موضـع آخر : ليس الغرض من الدرس تحصيل الرزق فى هذه الدنيا ولكن الغرض الوصول الى الحقيقة وتقوية الخلق يعنى الوصول الى الحقيقة العلمية والخلق الكامل ·

فالتربية الاسلامية كانت مثالية تطالب بالعلم لمافيه من لذة روحية، للوصول الى الحقائق العلمية والأخلاق النبيلة · وان من ينظر الى ما خلفه المسـلمون من تراث علمى وادبى ودينى وفنى يجـد أمامه ثروة خالدة لا نظير لها فى العالم كله ، تدل على شدة تعلقهم بالعلم لذاته ، والادب لذاته ، والفن لذاته · وليس معنى هذا أنهم أهملوا التعلم لكسب الرزق كلية · ويتبين هذا من الغرض التالى :

٥ ـ التعليم المهنى والفنى والصناعى لكسب الرزق :

لم تهمل التربية الاسلامية اعداد كل فرد لـكسب رزقه فى الحياة بدراسة بعض المهن والفنون والصناعات والتدرب عليها · ويظهر هـذا الغرض واضحا من قول ابن سينا : «اذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى مايراد أن تكون صناعته فيوجه لطريقه» ·· ويعد اعدادا مهنيا أو فنيا أو صناعيا حتى يجيد مهنة من المهن أو فنا من الفنون أو صناعة من الصـناعات ، حتى يتمكن من كسب رزقه ويحيـا حياة شريفـة مع المحافظة على الناحية الروحيـة والدينية · فالتربيـة الاسلامية كانت خلقية غالبا ولكنها لم تهمل اعداد الفرد للحيـاة وكسب العيش والرزق ولم تنس تربية الجسم والعقل والقلب والوجدان والارادة والذوق واليد واللسان والشخصية ·

---

(١) صفحة ١٦

الفصل الثاني

التربية الاسلامية ... تربية مثالية

اذا رجعنا الى الاتجاهات الحديثة فى التربية فى القرن العشرين ودرسنا مبادئها وطرقها وانظمتها وجدنا ان التربية الاسلامية قد سبقتها بقرون فى المناداة بكثير من المبادىء والأساليب التربوية الهامة ، وفى الاسهام فى النهضة العقلية ، والمثل الخلقية . وسنبين تلك الآراء الخالدة بايجاز فيما يأتى :

١ ـ الحرية والديمقراطية فى التعليم :

تأثرت طرق التربية والتعليم فى التربية الاسلامية تأثرا كبيرا بمبدأ الحرية والديمقراطية ، فقد نادى الاسلام بمبدأ المساواة وتكافؤ الفرص فى التعليم ، فيسرت سبل التعليم ووسائله أمام الطلبة جميعا ، وفتحت أبواب المساجد والمعاهد الدراسية للجميع ، من غير تفرقة بين الغنى والفقير ، والرفيع والوضيع من المتعلمين اذ لا فضل فى الاسلام لعربى على عجمى الا بالتقوى والتعليم فيها بالمجان ، والطلاب غير مقيدين بسن محددة أو أشهر معدودة ، أو شهادات خاصة أو درجات معينة فى الامتحانات أو قواعد مسنونة لاختيارهم . فمتى وجدت لدى المتعلم الرغبة فى الدراسة ومحبة العلم ، والشغف بالبحث والاطلاع يسرت امامه وسائل التعلم وشجع على طلب العلم وخاصة اذا كان ذكيا نابها.

ولم تكتف الامبراطورية الاسلامية بانشاء المساجد والمعاهد ودور العلم والحكمة لنشر التعليم بل اغدقت عليها كثيرا من الاموال والخيرات. ووقف عليها الموسرون من المسلمين كثيرا من العقارات والاوقاف كى يتمكن الطلاب الفقراء من متابعة الدراسة والتعمق فى الثقافة ، والتفوق فى البحث والاستمرار فى طلب العلم والمعرفة . وقد ظهر فى الاسلام كثير من العظماء والعلماء من أبناء الفقراء نذكر منهم الغزالى والامام الشافعى والجاحظ .. رحمهم الله رحمة واسعة . فقد وجدوا طلب العلم ميسرا أمامهم فانتهزوا الفرصة وجدوا وثابروا ودرسوا وتعمقوا فى دراستهم وانتفعوا بما أوتوه من ذكاء وذاكرة وقوة ملاحظة فخلدوا أسماءهم بين العلماء أو الادباء أو الفلاسفة أو الفقهاء .

ولم تكن المواد الدراسية مقيدة بمناهج محددة بل كان الطلاب

فى كل مادة يدرسون كتابا معينا ، فاذا ما انتهوا من دراسته انتقلوا الى كتاب آخر أعلى درجة منه فى تلك المادة وهكذا حتى ينتهوا من دراسة الكتب التى يريدونها .

كان التعليم واجبا دينيا فقد فرضه الاسلام على كل مسلم ومسلمة . لهذا تحمس الاغنياء فى اقامة دور التعليم من المساجد والمعاهد والمدارس والكتاتيب ودور الكتب وتزويدها بما تحتاج اليه من المؤلفات والادوات ، تقربا الى الله تعالى حتى تؤدى رسالتها على الوجه الاكمل وينتشر التعليم وتطهر النفوس ويتمسك المتعلمون بكل فضيلة ومن تلك المنافسة النبيلة بين الأثرياء من المسلمين قديما فى انشاء المعاهد الاسلامية نلمس كيف كانوا يشعرون بالواجب نحو نشر العلم والثقافة بين المسلمين .

فالمجهود فى نشر التعليم لم يكن على عاتق الدولة وحدها ، فقد كان الموسرون فى العصور السالفة ـ لا فى عصرنا هذا ـ ينشئون دور التعليم من تلقاء انفسهم ، ويتبرعون لها بما فى استطاعتهم من التبرعات ولم يتركوا كل العبء على الدولة بل تعاونوا معها ابتغاء مرضاة الله. وكانت الدولة تقوم بالتخطيط والارشاد والتوجيه وتساعد فى انشاء المبانى التعليمية واعدادها بالأجهزة والمراصد والمعامل مساعدة تتفق وعظمة الامبراطورية الاسلامية وقوة سلطانها ولم يقيد التعليم بقيود حديدية او مؤهلات علمية او مصروفات مدرسية أو شروط استعمارية كى لا يضعوا عقبة فى سبيل من يريد التعليم من البنين والبنات . وفتحت ابواب التعليم على مصاريعها أمام كل راغب فى الدراسة العلمية والدينية وفى كل وقت وكل دار من دور التعليم . وهذه هى الديمقراطية الحقة فى التربية والتعليم .

كان التعليم بالمجان والغذاء بالمجان والاقامة بالمجان فى المراحل المختلفة من التعليم فى المعاهد الاسلامية ، وهذا أكبر مظهر من مظاهر الديمقراطية فى الاسلام وان هذا الروح الديمقراطى الاسلامى الذى انتشر فى التعليم لا نجده حتى اليوم بين أغنى الدول الاوربية او الامريكية .

وفى التربية الاسلامية لم يضطر الفقراء من طلاب العلم الى السعى للحصول على المجانية فى اية مرحلة من مراحل التعليم أو الكد والعمل صيفا وشتاء لتوفير المصروفات المدرسية أو الجامعية . ولم يكن الفقر فى عصر الامبراطورية الاسلامية الحرة المستقلة عقبة فى سبيل التعلم فى

أى معهد بل أعطى الفقراء كل فرصة فى أن يتعلموا التعليم الذى يبغونه ولم توضع امامهم العقبات بل مهدت لهم كل السبل ، وزودوا بجميع الوسائل التى تيسر لهم التفرغ لطلب العلم من مجانية فى التعليم واقامة بالاقسام الداخلية . وتغذية صحية ومساعدة مالية وانتفاع بما فى المكتبات من كتب ومراجع .

ولم يطالب أبناء الفقراء من المسلمين بالاكتفاء بالتعليم الابتدائى أو الثانوى والرضا بمراكزهم المتواضعة فى الحياة بسبب الفقر بل شجعوا على اللحاق بالمعاهد العليا وأعطى الجميع الفرصة فى أن يتعلموا حتى النساء والجوارى . وكان المسلمون ينظرون الى العلماء والادباء والفقهاء نظرة كلها اجلال واكبار ، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء ولهذا شجع الآباء أبناءهم على التعليم والاقبال على المعاهد الدراسية وقد بدأنا منذ سنوات فى نشر التعليم الابتدائى والثانوى بالمجان والتغذية فى المدارس الابتدائية بالمجان وفى هذا المبدأ رجوع الى ماضينا الاسلامى المجيد وتقاليدنا الاسلامية الديمقراطية العريقة .

وفى التربية الاسلامية الاولى لم يكن هناك نظام طبقات فى التعليم ولم تخلق مدارس بمصروفات للأغنياء القادرين ومدارس أولية بالمجان للفقراء المعدمين الا فى عصر الاحتلال . فالاحتلال هو الذى أدخل نظام الطبقات والتفرقة فى التعليم بين الاغنياء والفقراء فانشأ مدارس ابتدائية وثانوية وعالية بمصروفات لأبناء الموسرين القادرين ومدارس اولية قليلة بالمجان لأبناء الطبقات الفقيرة .

لقد سوى الاسلام بين أبناء الاغنياء والفقراء فى التعليم ومنحهم جميعا الفرصة فى أن يتعلموا من غير تفرقة بينهم . ولم يقل احد من المسلمين ان الفقراء خلقوا ليعملوا بايديهم فى الحقول والمزارع والمعامل والمصانع ، وان الاغنياء وجدوا ليتحكموا فى الفقراء ، ويسيطروا عليهم بما أوتوا من مال وثراء ، لم يدع أحد فى الاسلام ان الذكاء مقصور على الاغنياء وانهم خلقوا ليتحكموا ، وان الفقراء أغبياء خلقوا ليحكموا . فالذكاء هبة فطرية من الله تعالى يمنحها الفقراء كما يمنحها الاغنياء ولم يجعله مقصوراً على طبقة من الطبقات . وقد سوى الاسلام بين الفقراء والاغنياء فى حق التعليم ، ومهد لهؤلاء وأولئك الفرص الملائمة للتزود بالعلوم والمعارف .

لم يقل الاسلام للفقراء انكم خلقتم للمراكز المتواضعة وخلق الأثرياء للمراكز العالية . كما كان يقال فى أوربا حتى القرن التاسع

عشر . بل نادى الاسلام دائما : الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى . وهذه هى الديمقراطية والعدالة والمساواة فى الاسلام .

والحق ان المعاهد الاسلامية لم تقيد بشروط معينة للحاق بها ولم ينتظر من طالب العلم الا امر واحد هو الرغبة فى العلم ، والاقبال عليه ، والتعطش للتعلم . ولم توصد أبواب المعاهد والحلقات الدراسية فى وجه طالب من طلبة العلم وقد وهب الاساتذة والعلماء حياتهم للعلم والتعليم . ولم ينتظروا اجرا او راتبا ، بل كانوا يشتغلون بمهنة التعليم ابتغاء مرضاة الله ويستعينون على المعيشة فى الحياة بحرفة او صناعة يتخذونها فى بعض أوقات فراغهم .

لهذا كله اقبل الطلاب على العلم لذات العلم ، وظهر كثير من العلماء والأدباء والمؤرخين الافذاذ كابن سينا والفارابى والغزالى ، والكندى وابن الهيثم وابن خلدون والطبرى وابن الاثير والجاحظ والمعرى والمتنبى .

ولا عجب ، فقد كانت سبل التعليم ميسرة للجميع والكتب متوافرة للطلبة والحياة ممهدة لا يجد النابهون والأذكياء من الفقراء اية عقبة فى سبيلهم . لذلك وجد منهم عظماء من الفقهاء والمفسرين والمحدثين ، وعلماء اللغة ، والادباء ، الذين خدموا الدين واللغة والعلم والادب خدمة عظيمة نلمسها فيما تركوه من مؤلفات ثمينة وكتب قيمة.

وخلاصة القول : ان التربية الاسلامية تتمثل فيها المبادىء الديمقراطية ، من الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص فى التعليم ، من غير تفرقة فى طلبه بين الموسرين والمعدمين وان المسلمين كانوا يعدون طلب العلم فريضة دينية وواجبا روحيا لا وسيلة لغرض مادى ويقبلون عليه بقلوبهم وعقولهم ويطلبونه برغبة قوية من تلقاء انفسهم . وكثيرا ما كانوا يقومون برحلات طويلة شاقة فى سبيل تحقيق مسألة علمية أو دينية.

٢ ـ التربية الخلقية الكاملة أسمى أغراض التربية الاسلامية :

تعد التربية الخلقية المثالية اسمى أغراض التربية الاسلامية فقد عنى علماء الاسلام كل العناية ببث الاخلاق الكريمة وغرس الفضائل فى نفوس المتعلمين ، وتعويدهم التمسك بالفضيلة ، وتجنب الرذيلة ،

والتفكير فى الناحيـة الروحيـة والانسانية والتفـرغ للدراسة العلمية والدينية من غير نظر الى ناحية مادية .

وان من يقرأ ما كتبه فلاسفة الاسلام من آراء فى التربية وتهذيب الاخلاق يلمس الاتجاه دائما نحو المثل السامية ويرى انهم كانوا يطلبون العلم لذات العلم ويعدون طلبه عبادة ويقضون حياتهم دائبين فى البحث والدراسة للوصول الى لب الحقيقة دون تفكير فى مال أو جاه أو مركز، ويقدسون العلم والعلماء ، وكمال الاخلاق . فالعلم فى نظرهم اعظم شىء فى الحياة ، والعلماء العاملون ورثة الانبياء . ولا يستطيعون تادية رسالتهم العلمية الا اذا تحلوا بكل فضيلة وطهروا أنفسهم من كل رذيلة . وعن طريق العلم والعمل الصالح كانوا يسمون بأرواحهم ويتقربون الى خالقهم جل شأنه .

وان تلك المثالية النادرة التي امتازت بها العصور الذهبية للاسلام هى سر عظمتها وقوتها الروحية ، وقد ادت الى نشاط كبير فى التاليف والانتاج العلمى والعمل عن ايمان وعقيدة بثبات وشجاعة واقدام . لهذا كله كان مستوى العلماء الخلقى والروحى رفيعـا ونجحوا فى حيـاتهم ونهضوا فى كل ناحية . وقادوا العالم فى العصـور الاسلامية الاولى فى حضارتهم الاسلامية ، ومدنيتهم الروحيـة ، ومثلهم العاليـة فى الدين والاخلاق ، ودافعوا عن الانسانية بمبادئهم الديمقراطية من الحرية والاخاء والمساواة والعدالة المطلقة. وفى الوقت الذى عنيت فيه التربية الاسلامية بالناحية الروحية والخلقية لم تهمل اى نوع من انواع التربية العقليـة او الجسمية او الرياضية أو الاجتماعية والعلمية والعملية فوصلت الى التربية المثالية الكاملة للانسان ، وتركت تلك التربية اثرا لا يستطيع ان ينكره احد فى العمل عن ايمان وعقيدة والعلم لذات العلم .

وقد نهضنا الان فى الميادين العلمية والادبية والمادية ولكننا لم نصل الى المستوى الروحى والخلقى الذى وصل اليه المسلمون فى العصـور الاولى من الاسلام . والحق اننا فى حاجة شديدة الى التفكير فى الناحية الروحية والتربية الخلقية المثالية حتى نعيد مجدنا السالف وعظمتنـا الاسلامية القديمة .

٢ ـ خاطبوا الناس على قدر عقولهم :

هذا مبدأ من اهم المبادىء فى التربية الاسلامية ويعد من احـدث المبادىء فى التربية الحديثة . وينبغى أن تكتب هذه النصيحة بقلم من

النور على باب كل مدرسة ، فلا يخاطب الاطفال بلغة لا يفهمونهـا ولا يخاطب الكبار بلغة الصغار . وهذا ما يشير اليه الغزالى بقوله : « أن يقتصر المعلم بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى اليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله » اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : « نحن معاشر الانبياء امرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم » فليبث اليه المعلم الحقيقة اذا علم أنه يستطيع فهمها مستقلا بنفسه وليضع كل طفل فى الموضع اللائق وليختر للمتعلمين المادة التى يدركونها وليكلمهم على قدر عقـولهم ، وليخاطبهم بالعبـارة التى يفهمونها ، واللغة التى يحسنونها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يحدث قوما بحديث لاتبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم » . وان التربية الحديثة تنادى بمـا نادى به الرسول الكريم من مخاطبة المتعلمين على قدر عقولهم ومراعاة مستواهم العقلى ومستواهم العلمى ، حتى يدركوا الأحاديث التى تقال لهم ، والموضوعات التى يدرسونها . فلا يخاطب الاذكياء بمـا يخاطب به الاغبياء ، ولا يخاطب الخاصة بما يخاطب به العامة . فالذكى يفهم الشيء بالاشارة والغبى ربما لا يفهمه الا بعد أن يكرر له عدة مرات . ولذلك قيل : كل لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك . وضع كل شيء فى موضعه وهى خير نصيحة لو استطاع ان ينفذها كل مرب ومربية .

٤ ـ التفرقة فى الطريقة التى تتبع فى التعليم :

فطريقة تعليم الاطفال تختلف عن الطريقة التى تتبع فى تعليم الكبار. وقد نادى الغزالى بهذا الرأى لان هناك فرقا بين ادراك الصغار وادراك الكبار حيث قال :

(ان من أول واجبات المربى أن يعلم الطفل ما يسهل عليـه فهمه لان الموضوعات الصعبة تؤدى الى ارتبـاكه العقلى وتنفـره من العلم) ويشاركه العلامة ابن خلدون فى هذا الرأى قائلا :

وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهـد الذى ادركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبون ذهنـه بحلها ، ويحسـبون ذلك مرانة على التعليم

وصوابا فيه .. فان قبـول العلم والاسـتعداد له ينشأ تدريجيا .. فالغزالى وابن خلدون وغيرهما من فلاسفة التربية الاسلامية يرون أن تفكير الطفل يختلف عن تفكير الرجل ، ويجب مراعاة ذلك فى طـريقة التدريس لكل منهما . ويعد هذا الرأى من أهم الآراء فى التربية الحديثة فى القرن العشرين .

فالطفـل يحتاج الى الامور المحسـة التى تتصل ببيئته والمـواد السهلة التى يمكنه أن يفهمها والرجل يستطيع أن يدرك الامور المعنوية التى تتفق مع العقل والمنطق .

٥ ـ التربية الاسلامية تربية استقلالية :

ان من ينظر الى طرق التدريس فىالتربية الاسلامية ـ فى المساجد والمعاهد ودور العلم ـ يجد أنها كانت ترمى الى تعويد الطلبة الاعتماد على انفسهم فى التعلم ، فالمدرس أو المحاضر يعين لطلبته بعد الانتهـاء من درسه كل يوم تعيينا خاصـا من الكتاب الذى يدرسـونه ، لقراءة التعيين قبل الدرس واعداده والاجتهاد فى فهمه . فاذا ذهب الطـلاب الى الدرس اصغوا الى أستاذهم ، واستمعوا اليه وهو يشرح الدرس، ويفسر النقط الصعبة فيه ويرشد من يحتاج الى الارشاد ويساعد من يحتاج الى المساعدة ويجيب عما يسـألونه من الاسئلة ويناقشهم فيما يحتاج الى مناقشـة .

وبهـذه الطريقة يعتاد الطـلاب الاعتماد على النفس فى القـراءة والفهم والبحث ويربون تربية استقلالية .

وكانت طـريقة التعيينـات متبعة فى الجامع الازهـر وقد كونت افذاذا من العلماء المعروفين بالعلم والصلاح والتقوى والشجاعة الادبية وكان المحاضر يلقى محاضرته وهو متمكن منها كل التمكن ويشرح آراء العلماء ويبين وجهة نظر كل منهم ويبدى رايه الخاص ويترك للطلبـة الحرية فى الاسئلة والمناقشة . وفى التربية الحديثة تسمى طريقةالتعيين طريقة دلتون وهى طريقة حديثة تنسب الى «مس هيلين باركهرست» وقد جربت طريقتها فى بلدة دلتـون بولاية مساشوستس من الولايات المتحدة بأمريكا . وهى لا تختلف عن الطريقة الازهرية قديما فى التربية والتعليم .

٦ ـ نظام التعليم الفردى فى التربية الاسلامية :

اننا نقصد من التعليم الفردى مراعاة قوة كل فرد ومستواه فيما يدرسه من المواد وفى عالم التربية اليوم حركة قومية تحض على اتباع هذا النظام . وقد تعجب اذا عرفت انه روعى فى التربية الاسلامية العريقة منذ قرون مضت وكان لكل طالب الحرية فى أن يختار أستاذه الذى يتلقى العلم عنه ولا يفرض عليه أستاذ معين ويختار المواد التى يدرسها ويسير فى كل منها على حسب مستواه ، وكانت التبعة فى الدراسة والبحث تلقى على عاتق الطالب فهو ملزم باعداد الدرس أو التعيين وقراءته ومحاولة فهمه ومناقشته مع غيره من زملائه قبل أن يحضر درس أستاذه وسؤال الاستاذ عن النقط التى يشعر بصعوبتها فى الدرس وكان يسير مع استاذه من درس الى درس حتى ينتهى الكتاب الذى يقرؤه الاستاذ . وكان المدرس على صلة روحية كبيرة بتلاميذه ، يعرف قواهم وميولهم ورغباتهم ويراعيها فى تدريسه وللصلة الروحية القوية بينه وبينهم كانوا يستفيدون كثيرا من علمه وخلقه ، وينتفعون من الاتصال به روحيا وعلميا .. وهذا روح التربية الحديثة اليوم .

وكان المتعلمون يشبعون رغباتهم بما يحتاجون اليه من العلم ويعتمدون على أنفسهم فى البحث وراء الحقيقة حبا فى الوصول اليها يرشدهم المعلم حين يحتاجون الى الارشاد ويجدون لذة فى التعلم ويعطون الحرية فى العمل بأنفسهم ، فيتعودون الجد والمثابرة على العمل والاعتماد على النفس والتغلب على الصعوبات التى تعترضهم ، ويمرنون على اتقان العمل واجادته ويعتادون الصفات الضرورية للنجاح فى الحياة العلمية والعملية .

ولم يقتصر طلاب العلم على التحصيل من الكتب وحدها فكان أساتذتهم يشجعونهم على الرحيل فى سبيل طلب العلم للاتصال بالعلماء والادباء والمؤلفين وأخذ العلوم من منابعها الاصلية . وكثيرا ما احتمل الطلاب قديما مشاق السفر الطويل للاتصال شخصيا بأساتذتهم ، ورحلوا الى اقاصى البلاد الاسلامية لتحقيق مسألة علمية أو فقهية واحدة .

من هذا كله نرى أن التربية الاسلامية كانت تنادى بحسن الصلة بين المدرس وتلاميذه ومراعاة مستوى المتعلمين ومواهبهم واستعداداتهم والرحلات فى سبيل الدراسة والبحث العلمى. وهذه كلها مبادىء نعدها مثالية فى التربية الحديثة فى القرن العشرين .

٧ ـ مراعاة الاستعدادات الفطرية والغرائز الطبيعية للمتعلم فى ارشاده الى المهنة التى يختارها :

لقد طالب علماء التربية الاسلامية بمراعاة ميول المتعلم واستعداداته الفطرية وقدراته الطبيعية عند ارشاده الى المهنة التى يختارها فى مستقبل حياته وخاصة ابن سينا فقد نادى بالعناية بدراسة ميول الطفل وجعلها أساسا لارشاده وتربيته قائلا : ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مواتية ولكن ما شاكل طبعه وناسبه. . .ولذلك ينبغى لمدبر الصبى اذ رام اختيار صناعة أن يزن أولا طبع الصبى ، ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه . فيختار له الصناعات بحسب ذلك . وهى نصيحة ثمينة لابن سينا ينصح فيها المربين الذين يريدون اختيار صناعة لصبى من الصبيان أن يزنوا طبعه او ميله ويعرفوه ويختبروا عقله وذكاءه . حتى يختاروا له صنعة تناسب ميله وعقليته ، فاذا كان يميل الى الدراسة الادبية وجه اليها واذا رغب فى الناحية العملية شجع على اختيارها واذا احب الدراسة العلمية اعطى الفرصة فى دراستها . وهذا رأى من أثمن الآراء فى التربية الاسلامية ونحن ننادى به اليوم فى التربية الحديثة .

وليس من السهل أن ينبغ المتعلم فى كل مادة يدرسها ولكنه يستطيع ان يتفوق ويكون ماهرا فى المواد التى يحبها ويميل الى دراستها . ومن المحال أن ينبغ فى المواد التى يكرهها وينفر منها .

ولا أبالغ اذا قلت ان التربية الاسلامية كانت تفكر فى الاذكياء وتلتقطهم كما تلتقط الأزهار من الحدائق وتعنى بهم كل العناية وتضعهم فى المواضع التى تناسب ذكاءهم وتوجه غير الاذكياء والمتعلمين الى الناحية العملية بعد الالمام بالضرورى من الدراسة الدينية وتوضح لكل طالب ما يليق بطبعه من العلوم اذ كل ميسر لما خلق له ، فالتربية الاسلامية تربية مثالية قد نادت منذ اكثر من ألف سنة بما ينادى به علماء النفس والتربية اليوم وانتظرت من المدرس ان يفكر فى حال الطالب اذا كانت لديه زيادة فى الفهم بحيث يقدر على حل المشكلات وكشف المعضلات ويهتم بتعليمه أشد الاهتمام . والا فليعلمه القدر الكافى لمعرفة الفرائض والسنن ، ثم يأمره بالاشتغال ، وليكن بصيرا فى اختبار ذهنه وعقله وقياس ذكائه ويبين لكل طالب ما يليق بطبعه من العلوم .

وهنا نلمس أن التربية الاسلامية لا تختلف عن التربية الحديثة فى مراعاة مستوى الطفل وحسن اختيار المادة له والتدرج معه فى الدرس

على قدر استعداده ، واعطاء الذكى فرصة فى اتمام تعليمه بأية وسيلة وتوجيه الغبى الى الاشتغال بالناحية العملية ، بعد اختبار ذكائه . وان فكرة الاختبارات العقلية او مقاييس الذكاء التى نفخر ونتباهى بها فى القرن العشرين قد روعيت فى العصور الذهبية للتربية الاسلامية بطريقة عملية . ولا ابالغ اذا قلت ان فلاسفة الاسلام نادوا بما ننادى ونفخر به اليوم .

٨ ـ الولع بالعلم والتفرغ للدراسة :

كان الطلاب مولعين بالعلم محبين للتعلم ، متفرغين للدراسة يقضون جل اوقاتهم فى البحث والاطلاع والقراءة والدرس ومحاولة الفهم وحل المعضلات من الاعتراضات العلمية وهضم العلم الذى يدرسونه ويجدون لذة كبيرة فى الفحص عن العلوم والمسائل ويمكثون نهارهم وليلهم ـ الا اقله ـ فى اعداد دروسهم لليوم التالى ويهبون شبابهم وحياتهم لطلب العلم والمعرفة ويستيقظون من نومهم مبكرين لصلاة الفجر ثم حضور درس التفسير او الحديث ثم الفقه ثم اللغة .

لهذا كان من بين المسلمين اعلام العلماء وكبار الفلاسفة ومشهورو الفقهاء والكتاب والادباء والشعراء والمؤلفون واللغويون وأنتجوا مؤلفات ضخمة قيمة فى التفسير والحديث والفقه والتوحيد والبلاغة والادب والنحو والصرف والمعاجم اللغوية . وهى كتب ومراجع لا يستطيع احد من علماء اليوم فى الشرق او الغرب ان يقوم بمثلها .

٩ ـ العناية بالخطابة والمناظرة وتربية اللسان :

كان من اهم انواع التربية الاسلامية التربية اللسانية وهى تعويد اللسان حسن التعبير مع دقة التفكير والارتجال فى الخطابة والاقناع فى المناظرة والمناقشة والمجادلة وتعد طلاقة اللسان فى الكلام الآن من الضروريات للنجاح فى حياة المعلمين والمحامين والسياسيين ... واذا نظرنا الى التربية فى عصرنا هذا وجدنا عناية كبيرة بالكتابة واهمالا تاما للمناظرة والخطابة مع ان الحياة الديمقراطية تتطلب العناية بكلتيهما تتطلب الفصاحة والبلاغة فى كتابة الرسائل والمقالات والقاء الخطب ارتجالا وتحتاج الى تربية اليد لتكتب كتابة بليغة واللسان ليتكلم كلاما

فصيحا وبعبارة أخرى تحتاج الى استعمال القلم وذلاقة اللسان وقوة البيان . فنحن نطالب اليوم بجودة التعبير بالقلم واللسان معا بحيث لا نعنى بأحدهما ونهمل الآخر .

فكما ننتظر من المربين أن يربوا الطلاب ليفكروا بعقولهم ويشعروا بقلوبهم وينفذوا بارادتهم ننتظر منهم عنايتهم بالخطابة والمناظرة واجادة التعبير بالقلم واللسان .

ولا يستطيع أحد ان ينكر أثر المناظرات والمناقشات فى المنتديات والمجتمعات الاسلامية فى النهضة العلمية والادبية والدينية .

١٠ ـ الرفق فى معاملة الاطفال :

كانت التربية قبل الاسلام تتبع أساليب الشدة والقسوة فىمعاملة الاطفال وتربيتهم فقد كان الجلد منتشرا ، والعقاب القاسى شائعا ، ولكن فلاسفة الاسلام تنبهوا الى مضار هذه الاساليب فى التربية فحذروا من استعمالها ونادوا بالرفق فى تربية الاطفال وعلاج اخطائهم بروح الشفقة والرأفة والعطف والرحمة ومعرفة البواعث التى أدت الى هفواتهم والعمل على تداركها ، وتفهيم الاولاد نتيجتها ، وساروا مع الطرق المثلى فى التربية وحملوا حملة شعواء على الشدة والقسوة فى التربية وعدوها قاتلة للهمم ، مخيبة للذكاء ، مؤدية الى الذل والخداع.

١١ ـ نظام الجامعات الشعبية مقتبس من التربية الاسلامية :

كانت التربية الاسلامية مرنة ، تفتح أبوابها لكل راغب فى طلب العلم قادر على الفهم تشجع المتعلمين على الاستمرار فى التعلم والبحث العلمى ، لا تتقيد بسن أو مجموع درجات أو ترتيب فى امتحانات ولا تطلب منهم مصروفات .

فالنظام الحديث للجامعات الشعبية اقتبسته أوربا من التربية الاسلامية فى عصورها الأولى تلك التربية التى قدست العلم وعدته نوعا من العبادة ورغبت النشء فى التعلم ، ولم تشترط مؤهلات معينة أو شهادات خاصة أو نسبا مئوية محددة ولم تقيد بقيود من الفولاذ ، وشروط كلها تعقيد وتعجيز ولم تضع عقبات فى سبيل من يرغبون فى طلب العلم .

فالدين الاسلامى دين علم ونور لا دين جهل وظلمة ونظام الجامعات الشعبية التى تعمل لنشر الثقافة العامة بين الراغبين فى تكملة انفسهم ثقافيا وعلميا وادبيا وفنيا من أبناء الشعب وبناته ـ مقتبس من انظمة التعليم فى التربية الاسلامية فى عصورها الذهبية .

١٢ ـ العناية بدور الكتب للتشجيع على البحث والاطلاع :

لقد عنيت التربية الاسلامية كل العناية بانشاء دور الكتب العامة والخاصة ولا نبالغ اذا قلنا ان انشاء المكتبات من مبتكرات التربية فى الاسلام لتشجيع العلماء والطلاب على البحث والقراءة والاطلاع ونسخ بعض الكتب الثمينة وترجمة ما يستحق الترجمة منها واقتناء ما يصح اقتناؤه من الكتب الدينية والعلمية والادبية والخلقية. ففى دور الكتب الاسلامية كنت تجد الباحثين والمطلعين والناسخين والمترجمين وكان لهم أثر فى الحضارة الاسلامية والنهضة العلمية .

وان ننسى لا ننسى ما تركه المسلمون من كتب قيمة دينية وخلقية واجتماعية وعلمية وادبية وما كتبوه من الموضوعات التربوية فيها . ومن تلك المؤلفات :

كتاب السياسة لابن سينا ـ وكتاب المدخل للعبدرى ـ وكتب الامام الغزالى ـ والدرارى فى الذرارى لابن العديم الحلبى والمقدمة لابن خلدون وكتاب جامع بيان العلم وفضله للنمرى القرطبى والبيان والتبيين للجاحظ .

وهناك كتب محدودة فى التربية مثل كتاب تعليم المتعلم للزرنوجى وأحكام المعلمين والمتعلمين لمحمد بن زيد وكتاب الفضيلة لأحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين للقابسى القيرونى « وهو مخطوط بدار الكتب المصرية » ورسالة المعلمين للجاحظ وترغيب الناس الى العلم للفطمونى وآداب المعلمين لابن سحنون .

١٣ ـ وظائف المعيدين فى الجامعات أخذتها المعاهد الاوربية والامريكية من التربية الاسلامية :

كانت وظائف المعيدين من الاساليب التربوية فى المعاهد الاسلامية القديمة وقد تاثرت الجامعات الاجنبية بالتربية الاسلامية فى انتفاعها

بنظام المعيدين فى الجامعات بعد تخرجهم فيها لتمرينهم على مهنة التدريس وتشجيعهم على الاستمرار فى الدراسة والبحث العلمى والاستزادة من العلوم للتعمق فى الدروس والاطلاع والانتاج فى التأليف والتصنيف واظهار البحوث العلمية والادبية والدينية وقد تأثر الغرب بهذا النظام حتى وقتنا هذا .

آراء موجزة للغزالى تتفق مع التربية الحديثة وعلم النفس :

ولنذكر هنا بايجاز آراء للغزالى تتفق تمام الاتفاق مع احدث آراء فلاسفة التربية وعلم النفس فى القرن العشرين :

١ ـ مهنة التعليم اشرف المهن وطلب العلم لا يتأتى مع المشاغل.

٢ ـ يجب الا يعامل الغلمان جميعا معاملة واحدة فى التهذيب بل يعامل كل منهم وفق مزاجه وطبائعه ويراعى استعداد كل طفل .

٣ ـ يجب أن نبادر بتأديب الطفل من الصغر .

٤ ـ ينبغى تعويد الطفل الاخشيشان فى الطعام واللباس والفراش .

٥ ـ يجب أن يأخذ الطفل حظا وافرا من الرياضة البدنية واللعب الجميل حتى لا يموت قلبه وتسوء معيشته .

٦ ـ يجب أن يعود الاخلاق الجميلة والعادات الحميدة ويجنب الرذائل والمساوى ويحفظ من قرناء السوء .

٧ ـ تجب مكافأته على كل خلق جميل أو فعل حميد يظهر منه والاقتصاد فى لومه وتعنيفه عند وقوع الذنوب .

٨ ـ يحسن التدرج فى ترك الاخلاق السيئة اذا صعب تركها مرة واحدة .

٩ ـ ينبغى الا يدع المعلم شيئا من نصح المتعلم وان يزجره عن سوء الخلق بطريق التعريض لا التصريح وبطريق الرحمة لا التوبيخ .

١٠ ـ يجب الا يدع المتعلم فنا الا وينظر فيه نظرا يطلع به على غايته ، ثم يتبحر فيه اذا ساعده العمر .

١١ ـ يجب الابتداء بالأهم من العلوم فان العمر لا يتسع لجميعها.

١٠٢ ــ ينبغى الا يخوض المتعلم فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله .

وهذه كلها آراء سديدة ونصائح ثمينة وارشادات منطقية ، نرجو ان يعمل بها المربون والمربيات من آباء وامهات ومعلمين ومعلمات .

آراء علماء الاسلام فى بعض الغرائز وتربيتها وهى تتفق مع آراء علماء النفس اليوم :

ان من يطلع على ما خلفه علماء الاسلام من كتب يرى كثيرا من الآراء لهم فى الغرائز وتربيتها والدراسات للقوى الانسانية وصلتها بالتربية الخلقية . فهم يقولون ان فى الانسان :

١ ــ قوة للتمييز والتفكير .

٢ ــ وقوة غضبية ــ تشمل الغضب والنجدة والاقدام وحب التسلط والترفع .

٣ ــ وقوة شهوية تشمل طلب الغذاء وأنواع اللذات الحسية.

ولا يرون شرا فى الشهوات أو الغرائز الا اذا زادت على حد الاعتدال فالغزالى مثلا يرى ان الشهوة ــ وهى الغريزة ــ خلقت فى الانسان لفائدته وانها ضرورية فى الجبلة أو الطبيعة .

ويرى عبد الرحمن بن الجوزى فى كتاب الطب الروحانى (ص٣) ان جميع ما وضع فى الآدمى انما وضع لمصلحته اما لاجتلاب نفع كشهوة الطعام أو لدفع ضرر كالغضب فاذا زادت شهوة الطعام صارت شرها فآذت . واذا زاد الغضب اخرج الى الفساد .

واننا نوافق الغزالى وابن الجوزى فى ان الغرائز خلقت فى الانسان لمصلحته وانها ضرورية له ، ويجب الا تزيد على حد الاعتدال . ومعنى هذا انه يجب تعديلها وتربيتها وتعليتها كما يقول علماء النفس اليوم .

ويرى ابن الجوزى ايضا ان الاصل فى الأمزجة الصحة وان العلل طارئة وان اقوم التقويم (أى احسن التربية) ما كان فى الصغر فاذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعبا .

واننا نعتقد أن هذه الآراء لا يستطيع احد ان ينكرها من علماء النفس والتربية اليوم .

والغزالى يرى ان الطفل يتقبل الخير والشر ولا يدرك فى طفولته الفرق بينهما حيث يقول : « وكما ان الغالب على اصل المزاج الاعتدال وانما تعترى المعدة المضرة بعوارض الاغذية والأهوية والاحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وانما أبواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه . » فالغزالى يقول بأثر التربية فى تهذيب الغرائز والميول الفطرية وتربيتها وتشجيع ما يستحق منها التشجيع. وتعديل مايحتاج الى تعديل ولا يقول بكبتها ، ويعتقد أن كل طفل يولد معتدلا قابلا للخير والشر ، يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها فان كان فى بيئة يهودية نشأ يهوديا وان كان فى بيئة نصرانية او مجوسية كان نصرانيا أو مجوسيا وان نشأ فى بيت اسلامى كان مسلما يدين بالاسلام .

وهذا هو المقصود بقول الرسول الكريم : « كل مولود يولد على الفطرة وانما ابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » وهى آراء ناضجة صحيحة لفلاسفة الاسلام نادوا بها منذ قرون طويلة وهى لا تختلف عن آراء المحدثين فى علم النفس اليوم .

ولا يمكننا أن ننسى قول الغزالى : « ان النواة ليست بتفاح ولا نخل قبل أن نتعهدها بالفرس والتربية على ان التربية لا يمكنها ان تغير من استعداد النواة لقبول بعض الاحوال دون بعضها الآخر فتجعل من نواة النخل تفاحا ومن نواة التفاح نخلا . فكذلك الغضب والشهوة لو اردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما اثر — لم نقدر عليه أصلا ولو أردنا سلاستهما وقودهما «وقيادتهما» بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه .

ومن هذا نرى أن الغزالى ادرك تمام الادراك الوراثة وقوانينها والتربية واثرها والكبت وضرره واقر بأثر التربية والتهذيب ، فنواة التفاح تنبت تفاحا ونواة النخل تنبت نخلا ، ولكنهما فى حاجة الى من يتعهدهما بالفرس والتربية والرقابة والعناية .على ان التربية لاتستطيع أن تغير الوراثة . وتجعل من نواة النخل تفاحا ومن نواة التفاح نخلا ومعنى هذا ان للوراثة اثرا كبيرا فى حياة الانسان ومظهره فهو يشبه اباه وامه أو جده او جدته من الطرفين فى الصفات الجسمية والعقلية وابناء الاذكياء اذكياء وابناء المعتوهين معتوهون . وقد ثبت هذا كله فى علم النفس العام . ومن قوله نستنبط : ان قمع الغضب وقهر الشهوة وكبت الغرائز بالكلية تضر الطفل كل الضرر ، ومن الخير ان

تقوده بالارشاد والنصح والتهذيب والمحاولة حتى تهذب ما لديه من غضب أو شهوة أو غريزة جامحة .

وقد اهتم فلاسفة الاسلام بالفروق الفردية بين الاطفال تلك الفروق الناشئة عن الاختلاف فى الوراثة أو الاختلاف فى الميول والاستعدادات الفطرية . وادركوا تلك الفروق الفردية وراعوها فى التربية والتعليم وقاموا بما ينادى به علماء التربية الحديثة فى النصف الثانى من القرن العشرين فى وقت كان يقول فيه احد الفلاسفة من الاوربيين فى القرن الثامن عشر : « التربية تستطيع أن تفعل كل شيء» ناسيا الوراثة واثرها والاستعدادات الفطرية لدى النشء وماذا تستطيع التربية أن تفعل مع طفل ضعيف العقل أو معتوه أو فى منتهى الغباوة ؟

ان التربية الحديثة بما أوتيت من وسائل مشوقة وانظمة جميلة وطرق جديدة لا تستطيع مطلقا أن تفعل شيئا مع هذا النوع المسكين من الاطفال . ولا يمكنها أن تحول المعتوه الى طفل ذكى أو فائق الذكاء مهما تحاول ومهما تقدم له من العناية والتربية .

وقد كان فلاسفة الاسلام فى دراستهم للغرائز والميول الفطرية متفائلين فلم يقولوا كما قال فلاسفة أوربا فى القرون الوسطى ان الميول الغريزية والطبيعة البشرية فاسدة ، بل تفاءلوا كل التفاؤل وبحثوا تلك الميول والغرائز ودرسوها دراسة عميقة ، ثم استنبطوا فى نهاية البحث أن من الممكن تربيتها وتهذيبها ، وان لها فوائد ولا يستطيع احد الاستغناء عنها ، فشهوة الطعام تؤدى الى المحافظة على الحياة والغريزة الجنسية لو زالت من العالم لحكم على الانسان بالفناء . ولو فقدت غريزة الغضب ــ وهى المقاتلة ــ ما استطاع النوع الانسانى الدفاع عن نفسه . وان من يطلع على ما قاله فلاسفة الغرب فى الميول والاستعدادات الفطرية قديما يجد أنهم نادوا بكبتها وقمعها ، والقضاء عليها فى حين ان فلاسفة الاسلام لم يقولوا بالكبت والقمع بل اتخذوا الحد الوسط ونادوا بتربيتها وتهذيبها وتعليتها وراوا الاعتدال فى معالجتها ؛ وهذه هى الفضيلة عينها . وبهذا الرأى اتفقوا مع المحدثين من علماء النفس فى عصرنا هذا .

وقد وضح الامام الغزالى ان الرسل ــ وهم معصومون من الخطأ ــ لم ينزهوا عن الغضب وان الرسول الكريم محمد بن عبد الله كان يغضب للحق ويحمر وجهه من الغضب ولكنه مع غضبه كان يتمالك نفسه ويضبط شعوره ولا يصدر عنه الا الحق دائما .

وخلاصة القول ان التربية الاسلامية لم تعمل على قمع الغرائز وكبتها ولكنها عملت على تعديلها وتربيتها وتهذيبها وتوجيهها بالارشاد والنصح الى الطريق المستقيم واخضاعها لسلطان العقل والتفكير والحكمة وادخال القوة الناطقة وهى التفكير لدى الانسان فى الحكم والتوجيه . فالقدامى من فلاسفة الاسلام كانوا يسبقون القرن العشرين بمئات السنين . ومع هذا كانوا يتفقون مع علماء النفس فى هذا القرن فى الوسائل التى بها تربى الغرائز والميول الفطرية فى الانسان .

التربية الاسلامية وأثرها فى النهضة العلمية والعقلية :

لايستطيع أحد أن ينكر أن للتربية الاسلامية أثرا كبيرا فى النهضة العلمية والعقلية فقد ترك علماء الاسلام أثرا خالدا فى الفقه الاسلامى والفوا كتبا مفصلة وموجزة فى المذاهب الاربعة للأئمة : ابى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد بن حنبل . وان من يطلع على تلك المؤلفات النفسية يجد تراثا ضخما فى التشريع الاسلامى والعبادات والمعاملات وتحديد العلاقات الروحية والاجتماعية والعملية الخاصة بالانسان . ويدل ذلك التراث على عظمة علماء الشريعة الاسلامية وقدرتهم النادرة علىالبحث والتفكير والاستقراء والاستنباط والحكم والتعليل ومثابرتهم العظيمة على الدراسة الفقهية التشريعية التى تتفق مع الدين والعقل والمنطق .

ولم يكتفوا بما الفوه من كتب قيمة فى الشريعة الاسلامية بل وضعوا قوانين اللغة العربية وقواعدها من النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والعروض والقوافى . واستنبطوا تلك القواعد والقوانين بطريقة مبتكرة دقيقة ، تدل على عقل منظم ، وتفكير سديد ، ورأى ناضج والمام تام بكل ما يتعلق باللغة العربية لغة القرآن الكريم من نثر وشعر . ولم يترك هؤلاء العظماء من العلماء صغيرة ولا كبيرة فى اللغة الا بحثوها ودققوا الفحص عنها ، وتفننوا فى الشعر وبحوره وحددوا اسسه وقوانينه بدقة متناهية .

وفى تفسير القرآن الكريم وشرح الأحاديث النبوية ألفوا كتبا قيمة وشروحا كثيرة مفصلة ومختصرة فى نواح متعددة تبرهن على ما أوتى الفقهاء وعلماء الاسلام من عظمة عقلية وذكاء فائق وصبر نادر ومقدرة علمية على البحث والتأليف والتبيين والتوضيح .

ولم يكتف العلماء بما ألفوه من الكتب فى العلوم الدينية بل اسهموا فى تدوين آثارهم واعمالهم العمرانية والسياسية والاجتماعية وتركوا آثارا خالدة فى كتب التاريخ والجغرافيا وكان لهم أثر كبير فى كتابة التاريخ الاسلامى ودراسة الشعوب والبلدان دراسة جغرافية واسعة.

ولم يكن فلاسفة الاسلام ضيقى العقول محدودى الأفق فى التفكير، بل كانوا واسعى الاطلاع غزيرى المادة شغوفين بالعلوم العربية والاجنبية فاطلعوا على كل حضارة قديمة ودرسوها دراسة مستفيضة وقرءوا قراءة عميقة ما كتبه المصريون القدماء والفرس والهنود والاغريق من طب وطبيعة وكيمياء وفلك ورياضة وفلسفة وموسيقا ، واضافوا الى ما درسوه وما قرءوه كثيرا من الآراء والافكار والتجارب والنظريات وخاصة فى الطب والطبيعة والكيمياء والرياضة فى عصر الامبراطورية الاسلامية . وكانت مؤلفات العلماء من المسلمين فى تلك العلوم واضحة وضوحا تاما فيها كثير من التجارب وتطبيق النظريات العلمية . ولا نبالغ اذا قلنا ان علماء الاسلام قد خدموا العلوم ببحوثهم العلمية خدمة عظيمة لا يستطيع ان ينكرها أحد . وان البحوث التى قاموا بها لا تقل فى اهميتها العلمية عما قام به علماء أوربا .

الفصل الثالث

العلم والتعليم فى نظر الاسلام

الدين الاسلامى يأمر بتعميم التعليم

ان الدين الاسلامى دين علم ونور لادين جهالة وظلمة فأول آيةنزل بها الوحى فيها أمر للرسول بالقراءة وتكرير لذلك الامر وتنويه بشأن العلم والتعليم نلمسه فى اسناد التعليم الى الله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الانسان مالم يعلم) .

وقوله تعالىمخاطبا نبيهمحمد (صلعم) : « وقل رب زدنى علما»وقوله: «شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط» فبدأ عز وجل بنفسه ثم ثنى بالملائكة ، ثم ثلث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفا وفضلا ونبلا . وقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون » أى ولا يفهمها الا العلماء المثقفون . وفى مواطن كثيرة نوه القرآن الكريم بشأن العلماء وما لهم من منزلة رفيعة ومكانة سامية فقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال : «يرفعالله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات » ، فالعلم مقدس فى نظر الاسلام وهو أسمى شىء فى الحياة لدى المسلمين وللعلماء العاملين منزلة فى الاسلام تلى منزلة الانبياء . قال الرسول الكريم : (العلماء ورثة الانبياء) فرتبة العلماء تلى رتبة الانبياء ، وقد قيل ان العلماء يشفعون للناس يوم القيامة بعد الانبياء ، قال صلى الله عليه وسلم : (ان مداد العلماء لخير من دماء الشهداء) .

وقد دعا الرسول الكريم الى التعليم وأوجبه فقال : (علموا أولادكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم) . ولم يفرق الاسلام فى طلب العلم بين الابناء والبنات فقد قال رسول الله : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) من غير تفرقة بينهما . فالدين الاسلامى يطالب المسلم والمسلمة بالتعلم وطلب العلم والعمل به ، والاجتهاد فى نشره . ولم يقف الاسلام عند الدعوة الى نشر العلم والتعليم فحسب ، بل دعا الى الاستمرار فىطلب العلم والتعلم والبحث والاطلاع فقال الرسول : (لايزال الرجل عالما ماطلب العلم فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل) . وقال : (يستغفر للعالم مافى السموات والارض) ، قال الغزالى تعليقا على هذا الحديث وأى منصب

يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والارض بالاستغفار له ؟ فالعالم مشغول بنفسه والملائكة مشغولون بالاستغفار له .

وكان صلى الله عليه وسلم ، يشجع التعليم بعمله وقوله فقد كان يطلق سراح الأسرى المتعلمين من الكفار اذا علموا بعض المسلمين القراءة والكتابة حرصا منه صلى الله عليه وسلم على ذيوع التعليم ونشره بين جمهرة المسلمين . ولم يفته أن يعطى المرأة حظها ونصيبها فى تعليم القراءة والكتابة فقد سأل الشفاء العدوية أن تقوم بتعليم زوجه السيدة حفصة القراءة والكتابة ضاربا بذلك أحسن الأمثال لأمته فى وجوب تعليم الفتيات .

وقد خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ، ويرغبون اليه ، وفى الثانى جماعة يعلمون الناس فقال : (اما هؤلاء فيسألون الله فان شاء اعطاهم وان شاء منعهم ، واما هؤلاء فيعلمون الناس وانما بعثت معلما » ثم عدل اليهم وجلس معهم وبذلك ضرب النبى لنا خير مثل فى تشجيع العلم ونشر التعليم والاشادة بفضل المعلمين . وحسبك أن تعلم أن العلم فى نظر الرسول الكريم قوام الدنيا وقوام الدين حيث قال : (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن اراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن ارادهما معا فعليه بالعلم) وقال ايضا . (الناس رجلان : عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما) . وقال صلى الله عليه وسلم : (لموت قبيلة أيسر من موت عالم) . وقال : (فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب) . وقال : (ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع) . وقال : (تعلموا العلم فان تعلمه لله حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله قربة) . وكلها أحاديث تشيد بفضل العلماء العاملين وتحث على طلب العلم وتدل على ان الاسلام يطالب بالتعليم ونشر العلم والتخلص من الجهل والأمية .

وفى الاثر : أفضل الناس المؤمن العالم الذى ان احتيج اليه نفع وان استغنى عنه أغنى نفسه .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لكميل : ياكميل العلم خير من المال ، العلم يحرسك وانت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه . والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق . وقال أيضا : العالم افضل من الصائم القائم المجاهد وقال نظما :

ما الفخر الا لأهـــل العلم أنهـم على الهـــدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسـنه والجاهلون لأهـــل العـلم اعداء
ففز بعـــلم تعش حيـــا به أبدا الناس موتى وأهل العـلم أحياء

وقال ايضا ، وأشار الى صدره : ان ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة • وقد صدق رضى الله عنه فقلوب الابرار قبور الاسرار •

وقال عمر رضى الله عنه : يأيها الناس عليكم بالعلم فان لله سبحانه رداء يحبه فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه • ولا عجب فبالعلم تحيا القلوب بنور الحكمة كما تحيا الارض بوابل السماء •

وقال بعض الحكماء : اذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره • وقيل . كن عالما أو متعلما أومستعلما ولا تكن جاهلا فتهلك •

وقال الحسن رضى الله عنه : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم • وهو يقصد أنهم بالتعليم يخرجون النـاس من حد الحيوانية الى حـــد الانسانية •

وقيل : تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لايعلمه صدقة ، وبذله لاهله قربة وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين والمصبر على السراء الضرء •• والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة فى خلتهم • وبأجنحتها تمسحهم لان العلم حياة القلوب ونور الابصار ، به يبلغ الانسان منازل الابرار وبه يطاع الله عز وجل وبه يعبد وبه يوعد وبه يوحد وبه يمجد وبه توصل الارحام ويلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء •

وقد خير حكيم من كبار الحكماء بين المال والملك والعلم •

فاختار العلم فأعطى الملك والمال لاختياره العلم • وقد رأى ابن مسكويه والغزالى ــ وهما من علماء الاسلام ــ ان العلم غذاء للروح وغذاء للعقل وعد ابن خلدون العلم والتعليم طبيعيا فى العمران البشرى وقال : (ان الانسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس والحركة والغذاء • •وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر •• وعن هذا الفكر تنشـأ العلوم والصناعات) •

وكان الخلفاء من المسلمين يجلون الادباء والعلماء ويغدقون عليهم المنح والعطايا ، ومما يدل على اجلالهم للعلم انهم يحثون أبناءهم على تلقيه ويرغبونهم فيه فهذا عبد الملك بن مروان يوصى ابنـــاءه فيقول : (يابنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنت وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم) ، فالتعليم فى نظره يجعل السادة فائقين ويصير المتوسطين ســادة ويمكن السوقة من كسب العيش والحياة ٠

وذاك مصعب بن الزبير يقول لابنه :تعلم العلم فان لم يكن لك جمال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا ٠ فالعلم زينة من لازينة له ومال من لامال له ٠

وذلكم الرشيد يعهد الى سيبويه بتأديب ابنه المأمون والى الاحمر وهو على بن الحسن بتأديب ابنه الامين ٠ ومن وصيته التى يجب على المربين أن يتخذوها نبراسا لهم فى تربية أبنائهم : (ياأحمر ان امير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة فكن له حيث وضعك أمير المؤمنين ٠ أقرئه القرآن وعرفه الاخبار وروه الاشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا فى أوقاته وخذه بتعظيم بنى هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ٠ ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان اباهما فعليك بالشـــدة والغلظة) وفى هذه الوصية تتمثل الحكمة وسداد الرأى فهى تشير الى منهج من أحسن المناهج الدراسية للمعـــاهد الثانوية فمن قراءة للقرآن الكريم الى دراسة للتاريخ والاخبار ، ومن رواية للادب والاشعار الى تعلم السنن ٠ ودراسة اللغة وبلاغتها ومن تربية دينية وأدبية وعلمية الى تربية خلقية واجتماعية ٠ وان الجزء الاخير من الوصية خير دستور فى المعاملة الطبيعية والعقوبة المدرسية حيث يقول : ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ٠ وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليـك بالشدة والغلظة ٠

وقد أفاض الحكماء والادباء والفلاسفة فى هذا السبيل ٠ فالغزالى يقول : (من أصاب علما فاستفاده وأفاده كان كالشمس تضىء لنفسهـا ولغيرها وهى مضيئة) وليس يغيب عن ذهننا ماقاله بعض حكماء الاسلام: (اطلبوا العلم من المهد الى اللحد ، اطلبوا العلم ولو بالصين) ٠

وقيل لأبى عمرو بن العلاء : (هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ قال : (ان كان يحسن أن يعيش فانه يحسن به أن يتعلم) ؛ ولا شك أن الطفل أولى من الشيخ فى التعلم ·

وقال الغزالى رحمه الله(١) العلم يقتنى كما يقتنى المال ·· فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماء ، فانه ··· كالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب والذى يعلم ولايعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم وكالمسن الذى يشحذ غيره ولا يقطع والابرة التى تكسو غيرها وهى عارية وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق كما قيل :

ماهو الا ذبالة وقدت تضىء للناس وهى تحترق

وقد قيل فى الاثر : تعلموا العلم فانه سبب الى الدين ومنبه للرجل ومؤنس للوحشة وصاحب فى الغربة ووصلة فى المجالس وجالب للمال وذريعة فى طلب الحاجة فآثار العلم انه يؤدى الى الدين اذا عمل به وينبه الانسان الى ماينفعه ومايضره ويؤنسه فى وحدته ووحشته ، ويكون صديقا له فى غربته ووصلة له فى المجالس والمنتديات ويجلب له المال ويكون وسيلة لطلب ما يحتاج اليه · وهى فوائد جليلة وآثار عظيمة ·

قال الشاعر :

يعد رفيع القوم من كان عالما وان لم يكن فى قومه بحسيب
وان حل أرضا عاش فيها بعلمه وما عالم فى بلده بغريب

فالعالم ـ وان كان ذا أصل وضيع ـ يعد فى نظر الاسلام رفيعا حسيبا لان الدين الاسلامى لايفكر فى نسب أو حسب ولكنه يفكر فى علم وعمل وتقوى وطهارة · واذا نزل بأرض استطاع أن يعيش فيها بعلمه وليس العالم غريبا فى أية بلدة من البلاد ، فالعلم أساس للنجاح فى هذه الحياة به يستطيع الفقير أن يصل الى أكبر مركز وأعلى منصب فى الدول الاسلامية · فبالعلم والتعليم قلت الفروق الاجتماعية فى الاسلام وظهرت المساواة فى تكافؤ الفرص ولم يكن الفقر أو وضاعة النشأة عقبة فى الوصول الى المراتب السامية والمناصب العالية فى العالم الاسلامى لان الاسلام دين الديمقراطية الحقة والعدالة المطلقة والمساواة التامة ·

ان الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبى

فالمسلمون يحكم عليهم بعلمهم وعملهم لابمولدهم وعنصرهم وأصلهم

---

(١) أرجع الى الاحياء جـ ١ صفحة ٤٩ .

ولا تأثير للآباء والاجداد والاحساب والانساب والغنى والفقر فى الحصول على المراكز الرفيعة فى الاسلام · فالعدالة واجبة · ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى والعمل الصالح والكفاية العلمية والخلقية ·

ولا جدال فى أن التعليم حق من حقوق الانسان وضرورة من ضرورات الحياة كالماء والهواء والغذاء فاذا أراد أن يعيش ويحيا وجب عليه أن يتعلم ووجب علينا القيام بتعليمه ·

واذا المعارف أشرقت فى أمة نالت أمانيها بغير توان

فاذا انتشر التعليم فى أمة من الامم نالت أمانيها وحريتها واستقلالها وما استطاع مستعمر أن يقف فى سبيلها · فالتعليم أفضل شىء يملكه افضل الرجال ، وخير وسيلة للنهوض بالامم المتخلفة وأحسن منحة يمكن أن تمنح · والجهل أس الرذائل · فحياة الجهل موت ·· والانسان فى حاجة الى العلم لان العلم وسيلة الحياة ·

لهذا كان علماء الاسلام يشجعون الطلاب على الدراسة والتعلم وجمع الحقائق واستنباط الآراء والافكار وتطبيقها عمليا ويحثونهم على الرحيل والسفر الطويل فى سبيل طلب العلم والمعرفة ·

لماذا أمر الدين الاسلامى بالتعليم ؟

لقد أمر الاسلام بالتعليم فى أول آية نزلت على الرسول الكريم لانه اول الواجبات واكبر وسيلة للرقى واصلاح العالم والشعوب اذا صحب العلم العمل به · قال الغزالى : لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها لاتفيده الا بالعمل · ولو قرأت العلم مائة ألف سنة · وجمعت ألف كتاب لاتكون مستعدا لرحمة الله الا بالعمل فالغزالى لايكتفى بالعلم ولكنه يؤكد أهمية العمل بالعلم · ويبدو ذلك من قوله « النـاس كلهم هلكى الا العالمين · والعالمون كلهم هلكى الا العاملين · والعـاملون كلهم هلكى الا المخلصين » فهو يتطلب من المسلم أن يتعلم ويعمـل بما يعلم ويخلص فى عمله · ويقصد بالعمل صقل مرآة القلب عن قاذورات الدنيا وخبائث الاخلاق والتحلى بالاخلاق الحميدة من الصبر والشكر وحسـن الخلق وطيب المعاشرة والاخلاص والزهد والتقـوى واجتناب الصفات الذميمة من الجزع ونكران الجميـل والحسد والحقد والغش والفخر والخيلاء والكبر والرياء ··

وقد شعر فلاسفة الاسلام بأثر العمل فى تثبيت العلم وزيادة أثره

قال الرسول الكريم «وانما يزهد الرجل فى علم يعلم قلة انتفاعه بما علم» وقال النمرى القرطبى فى جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ١١٨ ان عالما من المسلمين قال : (أول العلم النية ثم الاستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر) بمعنى أن الانسان ينوى التعلم ويقصده ثم يستمع لما يقوله العلماء ، ثم يفهم أقوالهم ثم يحفظها ثم يعمل بما تعلمه ثم ينشر ما تعلمه من الآراء والافكار بين الناس . وهذا هو المثل الأسمى فى التربية والتعليم .

ولسنا فى حاجة الى أن نذكر ثمرات العلم والتعليم ومضار الجهل والامية فمن المحال أن ترقى أمة من الامم الا بتعميم التعليم . ولا وسيلة لانقاذ الناس من شر الجهل والرذيلة الا بالعلم والعمل فالمدنية والحضارة والتقدم فى العلم والاختراع والابداع الذى نراه بأعيننا فى الامم الراقية نتيجة التربية العامة والتعليم المنتشر بين جميع الطبقات .

وينبغى أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله . وكل من تناول شيئا وقال للناس : لا تتناولوه فانه سم قاتل ، سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل الظل من العود . ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟ ولذلك قيل فى هذا المعنى :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله　　عار عليك اذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى : «أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم» ؟ ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل اذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال على كرم الله وجهه : قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك ، فالعالم يغر الناس بتهتكه والجاهل يغرهم بتنسكه . قال صلى الله عليه وسلم : (لايكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا) وقال أيضا : (من ازداد علما ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله الا بعدا) .

وقال عمر رضى الله عنه : ان أخوف ما أخاف على هذه الامة المنافق العليم . قالوا : وكيف يكون منافقا عليما ؟

قال : عليم اللسان ، جاهل القلب والعمل .

وقال الحسن ـ رحمه الله ـ لاتكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجرى فى العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبى هريرة رضى الله

عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه • فقال : كفى بترك العلم اضاعة له •

وقال تعالى : «كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون» • وقال ابو الدرداء رضى الله عنه : ويل لمن لايعلم مرة ، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات • وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم انه قال : حدثنى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كنا ندرس العلم فى مسجد قباء اذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا ، فالدين الاسلامى يأمر بطلب العلم والعمل بما نعلم • فالعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر •

قال الشاعر :

يا واعظالناس قد أصبحت متهما ... اذ عبت منهم أمورا أنت تاتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا ... فالموبقات لعمرى انت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها ... وانت أكثر منهم رغبة فيها

وقد قيل : لاتطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم • ومثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر فحملت فظهر حملها فافتضحت : فكذلك من لايعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الاشهاد •

كثيرا مانسمع نقدا مرا عن انتشار أمراض البلهارسيا والانكلستوما فى البلاد ، وكثرة السائلين والعجزة وفاقدى البصر حتى بلغت نسبة فقد البصر عندنا أكثر من أية نسبة فى العالم ونسمع أيضا عن فساد الاخلاق وكثرة الحوادث والجرائم • ولو علمنا الامة تعليما حقا لارتفع المستوى الصحى والخلقى والاجتماعى • وقد أحسنت وزارة التربية والتعليم فى جعلها التعليم الاعدادى والثانوى بالمجان حتى يشمل الفقراء والاغنياء ولا يحرم أحد التعليم بسبب الفقر • ومن الواجب أن نعلم كل فرد فى الجمهورية العربية المتحدة ويتعلم كل شخص فى العالم الاسلامى والعالم العربى فان العلم سبيل الحرية والغنى والرقى والنهضة •

يجب أن نعلم الامة حتى يقل الفقراء منها ولا نسمح للاطفال بالعمل الا بعد التعليم • يجب أن نعلمهم حتى نعدهم للكسب ولحياة أحسن من الحياة التى يعيشونها غير متعلمين • يجب أن نعلمهم التعليم النظرى أولا ثم الصناعى أو الزراعى أو التجارى ثانيا ونبحث لهم عن عمل يسيرون فيه بعد معرفتهم حرفة من الحرف ، أو صناعة من الصناعات حتى نقضى على

الجهل والفقر والمرض ولا يقبر ذكاء فرد واحد من أبناء الجمهورية العربية المتحدة ٠

انكم ان فعلتم ذلك نشأ الجيل الجديد نشأه صالحة فسلم جسمه وحصف عقله وكمل خلقه واستطاع أن يحقق لأمته ماتصبوا اليه نفسها من مجد مؤثل وعزة خالدة ٠

ولكى تعيد البلاد الاسلامية والعربية والشرقية مجدها القديم وعظمتها السالفة يجب أن تعمل على نشر التعليم وتعميمه بها فالجهل علة العلل وهو السبب الاول فى التخلف عن الايام الاولى أيام المجد والعظمة ٠ والتعليم هو الوسيلة للرقى فى كل ناحية من النواحى والاسلام دين العلم والنور ولا عيب فى الاسلام ، فالاسلام يطالب بتعليم الرجل وتعليم المرأة٠ وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كما يقول الرسول الكريم فمتى يأتى اليوم الذى يعمم فيه التعليم فى العالم الاسلامى كله ؟ ومتى نقضى على الجهل والامية ؟ ومتى نحتفل بدفن آخر أمى من الجمهورية العربية المتحدة والوطن العربى ٠

الفصل الرابع

أين كان المسلمون يتعلمون

التعليم فى البيوت :

فى بدء الاسلام كان التعليم الدينى فى الدور والبيوت فقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبى الأرقم مكانا يتقابل فيه مع أصحابه وتابعيه من المسلمين ليعلمهم قواعد الدين الاسلامى ويقرئهم مانزل من القرآن الكريم ٠

وبالاضافة الى دار الأرقم كان الرسول يجلس فى بيته بمكة ويجتمع المسلمون حوله ليعلمهم ويزكيهم ٠

ولما كانت البيوت قد أعدت للهدوء والراحة وقد يتضايق من فيها اذا قصدها كل يوم أحد المعلمين لتعليم بعض الابناء بدعوة من الآباء ، رأى المسلمون ان البيوت لاتصلح لتكوين حلقة فيها يقصدها طلاب العلم للتعلم بها وتلقى الدروس فيها ٠ فوجود الطلبة يؤدى الى الحركة والضوضاء وازعاج من فى البيوت واقلاق راحتهم ٠ وهذا هو المراد من قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه(١) ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ٠ والله لايستحيى من الحق(٢) » ٠

فالبيت موضع احترام وهدوء واستقرار لابد فيه من الاستئذان ٠ ولدخوله آداب اسلامية يجب التفكير فيها ، والعمل بها ٠ فالبيوت لاتصلح لان تكون أمكنة للتعليم العام ٠ ولكن عند الضرورة يجعل من البيت مكانا للتعليم الخاص ٠

لهذا كان التعليم فى المساجد والجوامع والمعاهد ودور الحكمة ودور العلم ودور الكتب والمنتديات والكتاتيب والمدارس ٠

وحينما جاء الاسلام كان عدد من يعرف القراءة والكتابة من أهل قريش سبعة عشر رجلا ولكن الدين الاسلامى شجع المسلمين على تعلم القراءة والكتابة واجادتهما فبدأت القراءة والكتابة تنتشران فى جزيرة

---

(١) غير منتظرين نضجه ٠

(٢) سورة الاحزاب آية ٥٣ ٠

العرب ، كى يستطيع رواة الحديث الشريف أن يضبطوا ما يكتبون من احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بكل دقة ٠

وكان المسلمون اذا أرادوا تعليم أبنائهم أرسلوهم الى الكتاتيب لتعلم القراءة والكتابة ، أو الى المساجد ليحضروا ما بها من حلقات علمية ودينية أو الى بيوت العلماء لتلقى العلم عنهم أو الى المكتبات والحوانيت التى تباع فيها الكتب للبحث والقراءة والاطلاع والاتصال بمن فيها من العلمـــاء والادباء أو الى المنتديات الادبية وقصور الخلفاء والاغنياء لاستماع ما يلقى فيها من المحاضرات والمناظرات والقصائد الشعرية ، أو الى البادية للأخذ عن الشعراء والكتاب ماجادت به قرائحهم من الشعر والنثر ٠ وسنتكلم عن كل منها فيما يأتى :

التعليم فى الكتاتيب :

كانت الكتاتيب قبل الاسلام لتعليم القراءة والكتابة وبعد الاســلام زيد عليهما تحفيظ الاطفال القرآن الكريم وتعليمهم الدين الاسلامى والخط والحساب ومبادىء اللغة ٠٠ فالكتاب أو المكتب هو المعهد الاولى الذى يتعلم فيه المبتدئون القرآن الكريم والقـــراءة والكتابة ومبـــادىء الدين واللغة والحساب والخط ٠

وكانت العناية بتعليم الخط كبيرة لانه فن من الفنون الجميلة ، وكان له معلم يختص بتعليمه ، ولا يشتغل بغيره ٠ وقد استخدم الرسول الكريم المسلمين الذين يستطيعون الكتابة والقراءة ، فى كتابة ماكان يمليه عليهم من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وكان عددهم قليـــلا فاضطر الرسول الى أن يستعين بغير المسلمين من اليهود والمســـيحيين فى تعليم المسلمين الراغبين فى التعلم ــ القراءة والكتابة ٠

وفى غزوة بدر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلف الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة من أهل مكة ممن لم يعتنقوا الدين الاسلامى أن يفتدوا أنفسهم بتعليم عدد من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ٠

وأول معلم للخط كان من وادى القرى(١) أقام بها وعاش فيها وعلم الراغبين من أهلها الخط ٠ وكان المعلمون يعلمون الصبيان الخط بالنقل

---

(١) وادى القرى : موضع قريب من المدينة على طريق الحاج من جهة الشام .

من الكتب الشعرية وغيرها لتنزيه كتاب الله عز وجل عن ابتذالهم له باثباته وكتابته ثم محوه ٠

وكان اللوح يستعمل فى الكتابة منذ زمن قديم فقد قالت أم الدرداء انها قد كتبت على اللوح عبارات فى الحكمة ٠ ليحاكيها تلميذ كانت تعلمه القراءة والكتابة ٠

وبعد معرفة القراءة والكتابة كان التلاميذ يقرءون القرآن الكريم ، ويكتبون كل يوم قدرا منه فى ألواحهم ويحفظون مايكتبون ٠ وبهـــذه الوسيلة كانوا يدربون على القراءة ويتعلمونها، ويحفظونالقرآن ويحسنون خطهم ٠ فقد كان الاطفال فى الكتاب لايجدون غيره من الكتب ، فهو كتاب للمطالعة وكتاب للمحفوظات ٠ ومع القراءة والكتابة كانوا يحفظون بعض أحاديث الرسول الكريم ويدرسون قصص الانبياء ويتعلمون قواعد اللغة العربية ومبادىء الحساب ٠

وفى العهد الاسلامى وجد المتعلمون الذين يحسنون الخط تشجيعا كثيرا وعينوا فى بعض المناصب والوظائف ودونوا أحاديث الرسول ، ونقلوا الكتب التى يطلبها الخلفاء منهم ٠

وفى عصر الترجمة قام المثقفون الذين يجيدون بعض اللغات الاجنبية بترجمة بعض الكتب الثمينة الى اللغة العربية ٠

وللجاحظ اثر كبير فى النهوض بتعلم القراءة والـكتابة والحساب والاقبال عليها وقد قال فى رســـالة المعلمين « ولولا الكتاب « الكتابة » لاختلت أخبار الماضـــين وانقطعت آثار الغابرين ٠٠ وقد راينـــا عمـــود صلاح الدين والدنيا انما يعتدل فى نصـــابه ويقوم على اساسه بالكتاب والحساب » ٠

وقال أبو بكر بن العربى العالم الاندلسى : « وللقوم فى التعليم سيرة بديعة ، وهى أن الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب ، فيتعلم الخط والحساب والعربية فاذا حذقها كلها أو حذق منها ماقدر له خرج الى المقرىء فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب أو نصفه أو حزبا » ٠

وفى الوقت الذى كان المعلم يخصص حجرة من منزله، ويجعلها كتابا لتعليم الاطفال الراغبين فى التعلم ، كان فى كتاب أبى القـــاسم البلخى ٣٫٠٠٠ تلميذ ومعنى هذا ان الكتاب فى الغالب كان حجرة واحدة أو أكثر فى النادر وكان كبيرا فسيحا جدا يتسع لآلاف التلاميذ ٠

وقد ازداد عدد الكتاتيب وعدد المعلمين في القرن الثانى الهجرى، والقرون التى بعده حتى صار فى كل قرية كتاب أو أكثر ٠

قال الامام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ : « كنت يتيما فى حجر أمى. فدفعتنى فى الكتاب ٠٠ فلما ختمت القرآن دخلت المسجد لطلب العلم والتوسع فى الثقافة الدينية » ٠

فالكتاب كان المكان الاول لتعليم الاطفال القرآن وكان للكتاب منزلة كبيرة لان تحفيظ القرآن فيه كان أمرا هاما فى الاسلام ، وقد ورد فى بعض المراجع العربية أن الحجاج بن يوسف المعروف كان معلما بأحد الكتاتيب يأخذ الخبز من الاطفال أجرا له فى حين كان عبد الله بن الحرث يعلم الاطفال ولا يقبل منهم أجرا ٠ وقد أشار المقريزى الى عدد من الكتاتيب التى كانت ملحقة بالمساجد فى مصر فى عصر المماليك لتعليم الفقراء واليتامى من الاطفال القرآن الكريم ويؤخذ من هذا أن المسلمين كانوا يشجعون نشر التعليم وأن الفقر أو اليتم لم يكن عقبة فى سبيل التعلم فكما كان الاغنياء والقادرون يتعلمون كان الفقراء يجدون الفرصة فى التعلم وحفظ القرآن وطلب العلم ٠

وقد أسهم كثير من المسلمين فى انشاء الكتاتيب لتعليم الاطفال ، وتنافسوا فى بنائها للتقرب الى الله ، ونشر التعليم بين الاغنياء والفقراء على السواء وكانت الكتاتيب تلحق بالمساجد حينا وتبعد عنها أحيانا ٠ وكان المعلمون من المسلمين ينظرون الى الاطفال نظرة واحدة من غير تفرقة بين الغنى والفقير منهم ، نظرة المساواة فى المعاملة والتعليم ٠ فالتربية فى الاسلام تربية ديمقراطية لاتعرف التفرقة ولا تعرف نظام الطبقات ٠ ولم يكن لدى المسلمين مدارس خاصة بالاغنياء والاشراف ومدارس عامة للفقراء بل كانت المدارس لجميع الطبقات من أبناء المسلمين يتعلم فقيرهم مع غنيهم فى مكتب واحد ومدرسة واحدة وفصل واحد من غير تمييز لهذا على ذاك ٠ فمبدأ المساواة والعدالة والديمقراطية وتكافؤ الفرص كان مراعى لدى الجميع ٠ فالتعليم فى الاسلام لم تستأثر به طبقة لأنها غنية ولم تحرمه طبقة لأنها فقيرة ٠

وفى الاسلام لم يكتف بتعليم الاطفال بالمجان ، فقد كان الطعام والكساء يقدمان لهم فى بعض الكتاتيب ٠

والتعليم فى الاسلام فرض على كل مسلم ومسلمة ، فرض على البنين والبنات فكما يعلم الابناء فى مدارس البنين تعلم الفتيات فى مدارس البنات منعا للمضار التى تنشأ عن اختلاط الجنسين ٠

ولم يمنع هذا النظام الاغنياء والامراء من تعليم أولادهم فى بيوتهم التعليم الذى يريدونه وتحفيظهم القرآن على أيدى معلمين خاصين ، وقد كان الحجاج معلما لاولاد سليمان بن نعيم وزير عبد الملك بن مروان ٠

وفى العصور الاسلامية الأولى كان بعض المعلمين يقومون بالتعليم بدون أجر ابتغاء مرضاة الله وبعضهم يقبلون أجرا زهيدا حتى يحصلوا على الضروريات فى الحياة ٠

حفظ القرآن الكريم فى الكتاب :

وكان القرآن الكريم يحفظ فى الكتاب ٠ وكان حفظه كله فى العصر الاسلامى الاول نادرا لان الصحابة كانوا يعنون بفهم معانى الآيات القرآنية والعمل بما يستنبط منها أكثر من الحفظ ٠ وقد قال ابن حنبل : كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا ، ، أى عظم بيننا ٠ قال جل شأنه : « كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته » ، فالغرض الرئيسى هو التدبر فى الآيات والتفكير فى المعنى المراد من كل منها وتنفيذ ماجاء به القرآن من أحكام ٠

وللتشجيع على حفظ القرآن كان من يحفظه يقدر حق قدره وتسند اليه بعض الاعمال العظيمة كالافتاء ٠ وكان الحفاظ يسمون القراء لانهم كانوا يقرءون القرآن ويعرفون الناسخ منه والمنسوخ والمتشابه والمحكم ، ويفهمون معانيه وما تدل عليه كل آية منه ٠ ولا عجب فقد كان العرب قبل الاسلام أميين لايقرءون ولا يكتبون ، وبعد الاسلام أخذوا يتعلمون القراءة والكتابة ويدرسون الشريعة الاسلامية ويستنبطون الاحكام الدينية ويضعون الفقه الاسلامى ويطلقون على القراء اسم فقهاء وعلماء .

التعليم فى المساجد والجوامع :

فى العصر الاسلامى الاول كان الصغار يجلسون مع الكبار فى حلقات المساجد للتعلم ٠ ومن تعلموا فى المسجد على بن أبى طالب وعبد الله ابن عباس ٠

وان للتربية الاسلامية صلة كبيرة بالمسجد فقد اتخذه المسلمون بيتا لعبادة الله والتقرب اليه ومعهدا للثقافة الاسلامية والتربية الدينية تدرس فيه قواعد الاسلام واحكام الدين وجعل محكمة للقضاء العادل وميدانا لاجتماع الجيش الباسل وبيتا لاستقبال السفراء ، ومركزا للحياة الروحية والاجتماعية والسياسية وقد أطلق على المسجد «بيت الله» فلا يحتاج أحد الى الاستئذان حينما يدخله للعبادة أو الدراسة أو غيرهما ٠

وأول مسجد بنى فى الاسلام هو مسجد قباء(١) وكانت تعقد فيه حلقات دينية ٠ وحينما دخل الرسول عليه السلام المدينة المنورة بنى مسجده بالمربد ليشجع المهاجرين والانصار على النشاط والسرعة فى العمل ٠ وكان من عادة الرسول أن يجلس فى مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم ودنياهم ٠ وبانتشار الاسلام انتشرت المساجد فى البلاد الاسلامية ٠

ولما كان الاطفال لايتحفظون من النجاسة فقد وصى كبيرون ألا يكون التعليم فى المسجد ٠ وقيل انه لايجوز تعليم الاطفال فى المسجد لان النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لانهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات ، بل يتخذون للتعليم أمكنة فى الدروب وأطراف الاسواق ٠ وحينما منع المعلمون من التعليم فى المساجد اتخذوا لهم زوايا متصلة بها أو حجرا ملتصقة بها لتعليم الاطفال ٠ وان من يقرأ رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة يجد فيهما كثيرا عن الحلقات التى كان الاطفال يجتمعون فيها فى المسجد ويلتفون حول معلم من المعلمين يعلمهم القرآن الكريم مع الاحتراس من لعب الاطفال فى المسجد ٠

وللمحافظة على المساجد والجوامع جعلت لتعليم الكبار من الطلبة التعليم الدينى والعربى الثانوى والعالى بدون أجر مع منحهم بعض المنح المالية والعطايا لمساعدتهم على الاستمرار فى طلب العلم ٠

قال العبدى (٢) : «أفضل مواضع التدريس هو المسجد لأن الجلوس للتدريس انما فائدته ان تظهر به سنة أو تخمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافرا لانه موضع لاجتماع الناس رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم» ، وهو يقصد بذلك تعليم الكبار من الطلاب تفسير القرآن ودراسة الحديث والفقه والشريعة

---

(١) موضع بالحجاز ٠

(٢) فى كتابه المدخل ج ١ ص ٨٥ ٠

الاسلامية مع مراعاة مبـــادىء التربية فى الاســـلام ، وهى المســـاواة والديمقراطية وتكافؤ الفرص ، والحرية فى تلقى العلوم واختيار مـواد الدراسة والاساتذة والتحرر من المؤثرات المالية ٠

وحينما انتشر الاسلام كثرت المساجد ، وبنى المسلمون مسجدا أو أكثر فى كل مكان حلوا به ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمر قواده بانشاء المساجد فى جميع البلاد والمدن التى يفتحونها ٠ وفى القرن الثالث الهجرى امتلأت بغداد وكانت الحال فى مصر كالحال فى بغداد ٠

١ ـ وأول جامع بنى فى القاهرة هو جامع عمرو بن العاص ٠ وقد بناه سنة ٢١ هـ بأمر من عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ٠ ثم جدد ذلك الجامع وزيد فى بنائه بعد ذلك عدة مرات وبدأت الدراسة الدينية والخلقية فيه سنة ٣٦ هـ ثم اتسع التعليم فيه بالتدريج ٠

وكان مسجد عمرو مركزا للثقافة ، ومحكمة للقضاء . وكان به أكثر من أربعين حلقة دراسية للتعليم يؤمها الطلبة للدراسة والبحث ٠

وقد بين المقريزى فى خططه بعض التفاصيل عن ثمانى حلقات كانت تدرس فيها العلوم المختلفة بجامع عمرو بن العاص نذكر قليلا عن حلقتين أو زاويتين منها وهما :

(أ) حلقة الامام الشـــافعى وقد نسبت اليه لان الشـــافعى قام بالتدريس فيها سنة ١٨٢ هـ وكانت تسمى بالزاوية ولها أرض موقوفة عليها بناحية سندبيس ٠ وكان أعيان الفقهاء وجلة العلماء يتولون التدريس فيها ٠ وكانت مملوءة بطلاب العلم والدين ٠

(ب) الزاوية الصاحبية وقد أعدها الصاحب محمد بن فخر الدين وعين لها اثنين من المدرسين ، أحدهما شافعى لتدريس الفقه على مذهب الامام الشافعى والآخر مالكى لتدريس الفقـــه على مذهب الامام مالك ، ووقف عليها وقفا خاصا بالزاوية ٠

وحينما وفد محمد بن جرير الطبرى على مصر قام بالتدريس فى جامع عمرو بن العاص وظهر فضله فى تفسير القرآن الكريم وتدريس الحديث والفقه وعلمه بالفقه واللغة والنحو الشعر ٠ وكان يملى على طلبته ما أرادوا من المباحث فى أية مادة من تلك المواد ٠

٢ ـ ومن الجوامع التى اشتهرت بالتدريس فيها جامع أحمد بن طولون وقد كمل بناؤه سنة ٢٥٦هـ ، وقام الفقهاء والعلماء بالتعليم فيه ٠ ويروى

السيوطي(١) ان دروسا مختلفة قد نظمت ورتبت فيه منهـــا التفسير والحديث والفقه على المذاهب الاربعة ، والقراءات والميقات والطب ٠

الجامع الازهر :

وهو مسجد عالمي أنشأه القائد جوهر الصقلي بالقاهرة في عهد المعز لدين الله الفاطمي ٠ وكان الشروع في بنائه يوم السبت لست بقين من جمادى الاولى سنة ٣٥٩ هـ وسنة ٩٧٠ م وكمل بناؤه سنة ٣٦١ هـ وسنة ٩٧٢ م وفي سنة ٧٦١ هـ في عصر الملك الناصر قلاوون أنشيء بالازهر مكتب لتحفيظ اليتامى من المسلمين القرآن الكريم ورتب للفقراء من الطلبة طعام يطبخ لهم كل يوم ، ونظمت فيه دروس للفقهاء من الحنفية ، ووقفت عليه أوقاف كثيرة ٠ وفي ســـنة ٨١٨ هـ بلغ عدد طلبته ٧٥٠ طالبا من مصريين ومغاربة وزيالعة وعجم ، وكان لكل طائفة منهم رواق خاص يعرف بهم ٠

وكان الجامع الازهر عامرا بتلاوة القرآن الكريم وتلقينه ودراسته والاشتغال بالتفسير والحديث وعلوم الفقه والنحو ٠

ولا يزال هذا الجامع ملحوظا بالرعاية مقصودا للدراسة والاستفادة والبركة والعبادة ٠ فحتى العقد الثاني من القرن العشرين كانت عبادة الله لاتنقطع فيه لحظة واحدة ليلا أو نهارا ٠ ففي كل لحظة تقصد الازهر كنت تجد من يصلي ويعبد الله أو يدرس عند القبلة القديمة أو الجديدة أو غيرهما ٠٠

وقد استمر الجامع الازهر يزداد شهرة في الآفاق ، يقصده الطلبة من جميع البلاد الاسلامية ، لتعلم العلوم الشرعية والعقلية والنقلية عـلى أيدى جهابذة العلماء المتفرغين للدراسة والتعليم ابتغاء مرضاة الله ٠ ٠ وازداد الاقبال عليه من المصريين وأهل الحجاز واليمن والشام والسودان والمغرب وبغداد وتركيا وكردستان والسند والهند والعجم والافغـــان وجاوه ٠ وتقاطر اليه الطلبة من جميع المذاهب الآسلامية للتبحر في العلوم الفقهة وغيرها ، وظهر فيه طلبة بارعون وعلماء عاملون ٠ فهو الجامع الذى جمع الطلبة من جميع انحاء العالم الاسلامي وهو الازهر والجامعة الاسلامية الكبرى ٠ به زال الجهل في عصور انتشرت فيها الجهالة ، وصارت حيـاة

---

(١) في كتابه حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٨ ٠

العلم خالدة وتأدبت نفوس طاهرة وكملت قرائح صافية وحفظ العلم والعلماء وصفت الافكار وظهرت الاسرار وكسب الشرف وعظم القدر فكثيرا مابزغت فيه شموس وأقمار ، وغردت فيه بلابل المتعلمين والمعلمين في العشى والابكار والاسحار ٠

وفي سنة ١٢٩٣ هـ و ١٨٧٥ م أحصى عدد العلماء والطلبة في الازهر فكان عدد العلماء ٣٢٥ وعدد الطلبة ١٠٧٨٠ تقريبا ٠

وفيما مضى كان لكل مذهب من المذاهب الاربعة أعمدة معينة لايجلس للتدريس بجانبها غيرهم ٠ وكان الطلبة اذا جلسوا في حلقة حول الشيخ قال في بدء الدرس : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ثم أخذ يشرح الدرس ويوضح ماعينه لهم في الدرس السابق وقرأ لهم التعيين في الكتاب وقابلوا عليه الدرس بكل دقة وسألوه عما صعب عليهم من الاسئلة وشرح لهم مابدا أمامهم من الصعوبة ٠ وبعد الانتهاء من الدرس يعين لهم درسا لاعداده لليوم التالي ويقبل الطلبة يد شيخهم ويطلبون منه الدعاء لهم ولو كانوا كبارا ٠

فالطلبة كانوا يحترمون أساتذتهم ويجلونهم كل الاجلال والاساتذة كانوا من العلماء المخلصين الأجلاء ٠ الذين يعاملون الطلبة معاملة الابناء ٠

وكان الطالب حرا في اختيار أساتذته ، يختار من يشاء ، ويجلس في الحلقة التي يريدها ، ويعتمد على نفسه في اعداد دروسه ، ويطلب العلم لذات العلم وليس لديه امتحان شهري أو سنوي ولم يكن هناك من يحاسبه على الحضور أو الغياب وتختلف سعة الحلقة باختلاف العلماء ومهارتهم وكان الطلبة يحفظون كثيرا من المتون في المواد المختلفة لاعتقادهم أن من حفظ المتون حاز الفنون ٠

وقبل أن يحضر الطلبة حلقة الدرس كانوا يعدونه اعدادا تاما بحيث يقرءون المتن وشرحه وما كتب عليه في الشرح والحاشية مرة أو أكثر جماعات أو فرادى ٠ واذا وجدوا صعوبة ولم يستطيعوا حلها سألوا الشيخ عنها وقت الدرس ٠ وكان الشيخ يعد درسه في عدة كتب ويطلع على كثير من المراجع حتى يستحضر أطراف المسائل ويستعد للاجابة عن الاسئلة التي يسألها الطلبة أو الاعتراضات التي يعترضون بها ٠

وكان من عادة الأذكياء والنابهين من الطلبة أن يطالعوا للباقين درس الشيخ مطالعة بحث وفهم وتدقيق حتى يأتوا الى الشيخ وهم

مستعدون كل الاستعداد لما يلقيه عليهم من الآراء والافكار · وتعد هذه الطريقة الازهرية القديمة من أحدث الطرق فى التدريس فى القرن العشرين وتتفق فى كثير من المبادىء مع طريقة دلتون فى التربية الحديثة ·

وكان لا يتصدر للتدريس الا العلماء المعروفون بسعة الاطلاع وغزارة المادة والقدرة على حل المشكلات العلمية والاجابة عن كل اعتراض من الطلبة الذين يجتمعون حولهم· وفى النهايةعمل قانون للامتحان بحيث يمتحن كل من يريد التدريس من المستجدين فى أحد عشر علما وهى : التفسير والحديث والاصول والتوحيد والفقه والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق · ومن أراد الدخول فى الامتحان بعد الانتهاء من حضور (السعد) و (جمع الجوامع) قدم التماسا لشيخ الجامع الازهر بانه يريد الدخول فى حومة العلماء المدرسين وأنه حضر كذا وكذا من العلوم فيسأل الشيخ عن أحواله ممن يعرف حقيقة أمره من أساتذته ثم يعين له من كل علم درسا ويحدد له ميعادا يطالع فيه ، ويجعل لكل علم يوما وبعد نهاية الأحد عشر يوما يعقد الامتحان ويجعل مريد الامتحان بمنزلة الشيخ ، والعلماء بمنزلة الطلبة له فيبدأ بالقراءة وهم يسألونه وهو يجيبهم وقد يستمر الامتحان اثنتى عشرة ساعة لا يقوم فيها الطالب الا لنحو الصلاة او تناول الطعام فاذا أجاب اجابة جيدة فى كل علم كتبوه من الدرجة الاولى واذا لم يجب جيدا فى جميع العلوم كتب من الدرجة الثانية واذا اجاب اجابة متوسطة كتب من الدرجة الثالثة · واذا لم يجب ذلك الممتحن أمر بالقيام من المجلس ولم يؤذن له بالتدريس ·

وقد حملت هذه الطريقة فى الامتحان الطلبة على الجد والاجتهاد فى التحصيل والقراة والاطلاع وسهر الليل حتى منتصفه للتبحر فى العلم · وكانت عنايتهم كبيرة بفهم العبارات وحل التركيبات وكثرة المناقشات بالاعتراضات والأسئلة والأجوبة ·

وكان من العادة أن يجعل الصباح المبكر للتفسير أو الحديث والضحا للفقه وتجعل الدراسة فى الظهر للنحو أو المعانى أو البيان أو البديع أو الأصول وبعد العصر تدرس العلوم الحديثة وبين المغرب والعشاء تدرس مواد اختيارية مختلفة ويتمرن كبار الطلاب على التدريس للمبتدئين منهم ·

وللأزهر عدة قوانين منها قانون سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م وفيه عد الجامع الازهر المعهد الدينى للعالم الاسلامى الاكبر والغرض منه :

١ ـ القيام على حفظ الشريعة الغراء وعلى تعليم اللغة العربية ٠

٢ ـ تخريج علماء يوكل اليهم تعليم هذه العلوم وتولى الوظائف الشرعية فى الدولة ٠

ويطلق اسم الجامع الازهر على كليات التعليم العالى وهى : كلية أصول الدين وكلية الشريعة وكلية اللغة العربية ٠ ويتبع كل كلية قسم التخصص فى المواد التى تعنى بها هذه الكلية ٠ ويطلق اسم « المعاهد الدينية » على المعاهد الابتدائية والثانوية التى تعد الطلبة للحاق بالجامعة الأزهرية ٠

ولم يكن فى الأزهر قديما شروط خاصة بالسن أو المؤهلات ٠ وهو حتى وقتنا هذا يعد جامعة من أقدم جامعات العالم ومن أولى الجامعات الاسلامية ويقول الخطيب البغدادى : ان درسا فى الطب كان يلقى فى الأزهر عند منتصف النهار من كل يوم (١) ٠

جامع المنصور ببغداد :

وقد شيده ابو جعفر المنصور وجدده هارون الرشيد وزاد فى مبانيه وأصلحه ٠

وكان ذلك المسجد قبلة أنظار الاساتذة والطلاب وكانت له منزلة سامية فى نفوس العلماء والشعراء ٠ وقد قيل : ان الخطيب البغدادى حينما حج شرب من ماء زمزم وسال الله أن يحقق له ثلاثة أمور منها أن يعطى الفرصة فى أن يملى الحديث الشريف بجامع المنصور ٠ وكان الكسائى يجلس فى ذلك المسجد ليقرأ للطلبة علوم اللغة وكان أبو العتاهية يملى شعره فيه ٠

الجامع الأموى بدمشق :

كان الجامع الأموى بدمشق يعد من عجائب الدنيا ، فقد أنفق الوليد ابن عبد الملك على بنائه خراج المملكة سبع سنوات ، وظل العمل فى بنائه ثمانية أعوام ٠ قيل : انه لو مكث الانسان فيه مائة سنة لراى فى كل يوم أعجوبة لم يرها من قبل وقد وصفه ابن جبير فى رحلته فبين أن فيه

---

(١) عيون الانباء لابن ابى اصيبعة ج ٢ ص ٢٠٧ ٠

حلقات للتدريس للطلبة ، وللمالكية زاوية للتدريس يجتمع فيها طلبة المغاربة ومرافقه للغرباء كثيرة وواسعة • وبه مدرسة للشافعية • وفيه عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والبعد عن ازدحام الناس •

وكان للخطيب البغدادى بهذا المسجد حلقة كبيرة سنة ٤٥٦ هـ وكان الناس يجتمعون اليه فى صـــباح كل يوم فيقرأ لهم دروســا فى الحديث •

ولم يكن التعليم فى المساجد والجوامع مقصورا على العلوم الدينية بل شـــمل فروعا كثيرة من العلوم كالنحو والأدب والشـــعر والفلك والحساب • وكانت أبوابها مفتوحة للجميع من الراغبين فى الدين والعلم والدراسة فى متناول جميع الطبقات من الطلاب لا تقتضى مالا ولا جاها وكان لبعض الأســـاتذة رواتب معينة من الأوقاف ، وبعضـــهم يكسب معيشته بعرق جبينه ويقوم بالتدريس بالمجان ابتغاء الثواب من الله •

فالمسجد أو الجامع لم يكن خاصا بالعبادة ولكنه كان أيضا مكانا للتربية والتعليم والنظر فى شئون الدين والدنيا •

التعليم فى دور الحكمة ودور العلم :

فى عصر الدولة العباســـية كان المسلمون قد اختلطوا بالشعوب المختلفة وتأثروا بحضاراتها فانتعشت الأفكار وتسابق علماء المسلمين فى معرفة علوم الأقدمين وترجمة الكتب الأجنبية الى اللغة العربية وخاصـــة فلسفة الاغريق وعلومهم وتنافســـوا فى جمع المؤلفات العالمية النفيسة القديمة فى دور الحكمة ودور العلم لنقلها ودراستها والانتفاع بما فيها من ذخائر • وقد ترجم عدد كبير من الكتب النادرة ونبغ من علماء العرب محمد بن موسى الخوارزمى العالم الشهير المعروف بالنبوغ فى علم الفلك وأبو جعفر محمد الذى كان من الفائقين فى علوم الهندسة والحساب والمنطق ، فدور الحكمة ودور العلم هى جامعات بها دور عامة للكتب ، فيها كثير من العلماء فى المواد المختلفة لقراءة تلك العلوم وافادة من يحضر اليها من طلاب العلم والمعرفة وارشادهم الى المراجع التى يريدون الرجوع اليها فى دراساتهم وبحوثهم للتعمق فى الدرس بطريقة تعودهم البحث الشخصى والاستقلال الفكرى

وقد حاكى الفاطميون فى مصر العباسيين في بغداد فى انشاء دور الحكمة ودور العلم بالقاهرة لدراسة فلسفة الاغريق وعلومهم مع العلوم الاسلامية • وقد قال المقريزى (١) ان دار الحكمة فتحت بالقاهرة سنة ٣٩٥ هـ وفرشت وزينت وعلقت الستائر على أبوابها وجلس فيها الفقهاء والعلماء والأطباء لتدريس علوم الفقه والنحو واللغة والطب وأقبل عليها الطلبة للدراسة والقراءة والاطلاع والناس للاستماع والنساخ لنسخ ما يريدون من الكتب النفيسة التى زودت بها وحملت اليهـــا من خزائن القصـور . وعين لها خدم لخدمة العلماء والطلاب .

وقد زودهـــا الحاكم بأمر الله بكتب نفيسة فى العـلوم والآداب ومخطوطات نادرة وأهداها الى دار الحكمة وأباح لمن يرغبون فى القراءة الانتفاع بها ودراستها والنظر اليها • وأقبل الناس عليها لقراءة الكتب أو نسخها أو تعلمها • وزودها الحاكم أيضا بما يحتاج اليه الناس من حبر وأقلام ومحابر وأوراق للكتابة •

واستمرت دار العلم فى القاهرة الى سنة ٥١٦ هـ حينما أمر الافضل باغلاقها •

وانك تجد فى تاريخ دار الحكمة ببغداد بعض الغموض بعد عصر الخليفة المأمون ، والخلاصة أن دور الحكمة ودور العلم كانت بمثـــابة جامعات أو معاهد عالية للتخصص ، بها دور كتب للدراسة والاطلاع والنسخ ولم تنتشر فى جميع البلاد الاسلامية بل كانت فى مصر والعراق وبلاد فارس • ولم تكن صبغتها كالمعاهد الاسلامية الأخرى فانها عنيت بدراسة العلوم الدينية كما عنيت كل العنـــاية بدراسة العلوم الدنيوية والفلسفية • وفى الوقت الذى كان يؤمها الطلبة للتخصص والدراسات العالية كان يقصدها طلبة آخرون للقـراءة والثقـــافة المختلفة ونسخ مايريدون من الكتب النفيسة •

---

(١) الخطط للمقريزى جـ ٢ طبع مصر ١٣٥٦ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦ •

الفصل الخامس

التعليم فى الحلقات والمجتمعات الأدبية :

امتاز نظام التعليم الاسلامى بالسهولة والمرونة فلم يتقيد بمكان معين فى نشر الثقافة والتعليم فكانت تعقد الحلقات العلمية فى بيوت العلماء وقصور الخلفاء يحضرها الطلاب والراغبون فى العلم للاصغاء وكتابة ما يستمعون من الأساتذة والعلماء ويحضرها الأطباء والفلاسفة والأدباء للانتفاع بما يستمعون من المناظرات والمناقشات الدينية والعلمية والطبية والأدبية ٠

وكثيرا ما كانت الأديبات من المسلمات يعقدن المجالس الادبية لدراسة الادب والشعر ونقد الشعراء والموازنة بينهم ومن هؤلاء السيدة سكينة والولادة بنت الخليفة المستكفى ٠

وكان الرئيس ابن سينا يدرس لطلبته كتاب الشفاء وكتاب القانون فى بيته ليلا ، لانه كان مشغولا بعلاج المرضى نهارا ٠

وكان أبو سليمان السجستانى مريضا بالتبرص فلزم بيته وانقطع عن الناس فكان طلاب العلم يذهبون اليه للاستفادة منه وكان بيته مجتمعا لأهل العلم وقصده الرؤساء والأجلاء وسادة العلماء للاستذكار والمناظرة فى موضوعات مختلفة والمناقشة فى آراء الفلاسفة القدماء وشرحها والتعليق عليها وكانت له الكلمة الأخيرة والقول الفصل ٠

وقد اعتاد الطلبة والمدرسون الذهاب الى دار الامام الغزالى ليستفيدوا من علمه وخلقه ودراسة بعض الكتب معه ٠ فقبل انتشار المدارس كانت بيوت العلماء وقصور العظماء تعد أمكنة للحلقات والمجتمعات العلمية والأدبية يؤمها الطلاب الراغبون فى البحث والعلم ودراسة بعض الكتب٠

وفى قصر سيف الدولة الحمدانى كان المتنبى يغرد بشعره فقدانتقل تيار الأدب العربى الى شمالى سورية وجعل مدينة حلب مقرا له وهى عاصمة الدولة الحمدانية ٠ واستطاع سيف الدولة أن يجمع حوله فى مملكته الصغيرة متعددة النواحى فى العبقرية وكان كرمه الفائق سببا فى أن يتصل به أدباء العصر وعلماؤه ٠

وكان الخليفة حاميا للعلم والدين وقصره مركزا ثقافيا للأدب والأدباء يلتقى فيه العلماء والشعراء ٠ وكانت المنتديات الأدبية للخلفاء تؤثث تأثيثا جميلا ولا يدخلها الا طبقة خاصة من الأدباء والعلماء ولها

تقاليد خاصة يجب أن تراعى فالداخل فى حضرة الخليفة يجب أن يكون نظيف الملبس وقور الهيئة يجلس فى المكان المناسب له لا يضحك ولا يبصق ولا يمخط ولا يجيب عن شيء الا اذا سئل عنه ولا يرفع صوته وعليه أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام ويمهل المتكلم حتى يتم حديثه ويتجنب الألفاظ الوحشية ولا يكثر القهقهة ·

وفى تلك المنتديات كانت الموضوعات تعرض لبحثها ونقاشها والمناظرة فيها ·

وقد بنى المعتضد بالله قصره ببغداد وفيه دور ومساكن ومقصورات ليرتب فى كل موضع رؤساء لكل مذهب من مذاهب العلوم النظرية والعلمية ويجرى عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علما من العلوم أو صناعة من الصناعات الرئيس الذى يختاره ليأخذ عنه العلم أو الصناعة ·

وكان معاوية بن أبي سفيان يستدعى الى مجلسه فى قصره بعض العلماء والأدباء والمؤرخين ليقرءوا له تاريخ العرب ويحدثوه عن مواقعهم الشهيرة وعن تاريخ ملوك الفرس ونظم حكوماتهم وادارتهم ·

وقد جلس عبد الملك بن مروان يوما وعنده جماعة من خاصته فقال: ايكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه مرتبة وله على ما يتمناه ؟

فقام اليه سويد بن غفلة فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ·

فقال عبد الملك : هات ·

فقال سويد : أنف ، بطن ، ترقوة ، ثغر ، جمجمة ، حلق ، خد ، دماغ ···

فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال : يا أمير المؤمنين أنا أقولها فى جسد الانسان مرتين ···

فقال سويد : أنا أقولها ثلاثا وأنشأ : أنف ، أسنان ، أذن ···· الخ · فأعطاه عبد الملك جائزة وأنعم عليه وبالغ فى الاحسان اليه ·

وقد حضر أعرابى مجلس عبد الملك بن مروان أيضا وكان جرير حاضرا فسأل عبد الملك الأعرابى : هل لك علم بالشعر ؟

قال العربى : سلنى عما بدا لك يا أمير المؤمنين ·

قال عبد الملك : أى بيت قالته العرب أمدح ؟

قال العربى : قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح ٠

فرفع جرير رأسه وتطاول :

ثم قال عبد الملك : فأى بيت قالته العرب أفخر ؟

قال العربى : قول جرير :

اذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناس كلهم غضابا ٠

فتحرك جرير ثم قال عبد الملك ... فأى بيت أهجى ؟

قال العربى : قول جرير :

فغض الطرف انك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا ٠

فاستشرف جرير لذلك ٠

ثم قال عبد الملك : فأى بيت أغزل ؟

قال العربى : قول جرير :

ان العيون التى فى طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا ٠

فاهتز جرير وطرب ثم قال عبد الملك : فأى بيت أحسن تشبيها ؟

قال العربى : قول جرير :

سرى نحوهم ليل كأن نجومه ... قناديل فيهن الذبال المشتعل ٠

فقال جرير : جائزتى للعربى يا أمير المؤمنين ٠

فقال له عبد الملك ٠٠ وله مثلهـــا من بيت المـال ولك جائزتك ياجرير ، لا ننتقص منهـــا شيئا ٠ وكانت جائزة جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة ٠ فخرج العربى وفى يده اليمنى ثمـانية آلاف درهم وفى اليسرى رزمة ثياب ٠

هذا مثل من الأمثلة لمجـالس الأدب فى العصر الأموى فلمـا قامت الدولة العباسية ظهرت المنتديات الأدبية بمعناها التام في العالم الاسلامى وصارت تعقـد فى أوقات محددة وشملت تلك المنتديات قصور الخلفـاء وقصور الأمراء والعظماء ثم تنوعت المنتديات فكان منها منتديات للآداب

ومنتديات للعلوم ومنتديات للفنون · ولكن مجالس العلم والأدب استمرت أرفع المجالس قدرا وأعظمها منزلة ·

وفى مجلس هرون الرشيد كانت تعقد مناظرات بين الشعراء ومناقشات بين الفقهاء ، ومساجلات بين أهل الفنون والأدباء ·

وكان عصر المأمون أزهى العصور فى تاريخ النهضة العلمية والأدبية والدينية فى الامبراطورية الاسلامية فقد كان المأمون نفسه عالما من كبار العلماء أديبا من أساطين الأدباء واختار أصحابه ورجال دولته من الأفذاذ فى الشرق والغرب وكان بجانبه كبار الأساتذة والمفكرين والمستشارين والمترجمين · ويقول سيد أمير على القاضى الهندى : ان معية المأمون كان بها عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء والاطباء والفلاسفة الذين استدعاهم المأمون من جهات كثيرة من العالم المتمدين وشملهم جميعا بعنايته مع اختلاف ميولهم وجنسياتهم ·

وكثيرا ما أخذ المأمون نفسه الدور الرئيسى فى المناظرات التى فى مجلسه ·

ففى عصر المأمون ارتقت العلوم الدينية واللسانية واستفادت هذه المجالس كل الاستفادة من الترجمة والتقدم العلمى ·

وكان السلطان محمود الغزنوى يحب العلم والعلماء ويكرمهم ويجالسهم ويحسن اليهم وتعقد المناظرات الطويلة بين يديه ·

فقصور الخلفاء والأمراء والقادة كانت تقوم مقام الجامعات فى عصرنا هذا · وكان الحكام يتنافسون فى حماية الأدباء والعلماء والطلبة يعملون على النهوض بالأدب والعلم والدين والحكمة ·

وفى تلك الحلقات والمجتمعات كانت تقام البحوث والمناظرات · وكان الباحثون والمتناظرون يعتمدون على المنطق وسلامة التفكير وقوة الجدل والمناقشة فقد روى أنه اجتمع متكلمان فقال احدهما : هل لك فى المناظرة ؟

فقال الآخر : على شرائط : ألا تغضب ، ولا تعجب ، ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تقبل على غيرى وأنا أكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبك الا جوزت لى تأويل مثلها على مذهبى ، وعلى أن تؤثر التصادق ، وتنقاد للتعارف ، وعلى أن كلا منا يبنى مناظرته على أن الحق ضالته والرشد غايته ·

ومن هذا ترى أنه كان لعلم البحث والمناظرة قواعد يجب أن تراعى وكان فى تلك البحوث والمناظرات مجال كبير للثقافة وابداء الآراء والأفكار. فالحلقات والمنتديات الأدبية والعلمية كانت بمثابة قاعات واسعة للمحاضرات والمناظرات والتدريس .

وفى القصور المصرية بدأت المنتديات الأدبية منذ ظهرت الدولة الطولونية ، وكانت الدروس تلقى فى قصور الأمراء والوزراء وفى بيوت العلماء .

وفى بلاط الأخشيد كانت الأبحاث التاريخية تلقى كل مساء . وقد تربى كافور الأخشيدى فى هذا البلاط وترقى حتى جعله الأخشيد معلما لولديه فلما تسلم كافور الاخشيدى الأمر قرب الشعراء منه . وأعطاهم الجوائز . وفى كل ليلة كانت السير واخبار الدولة الأموية والعباسية تقرأ عنده . وصار كافور حاميا للعلماء والأدباء وامتاز قصره بوجود المتنبى بين جماعته لينشد الكثير من شعره .

وكان الفاطميون يعقدون مجالس ومنتديات علمية من وقت لآخر وقوام هذه المجالس أساتذة بيت الحكمة الذين كانوا ينقسمون الى جماعات تبعا لتخصصهم ومواد دراستهم . فكان يجتمع هنا أساتذة المنطق والجدل وهناك الفقهاء والمحدثون وفى مكان ثالث علماء الرياضة ويشغل الأطباء مكانا رابعا وهكذا.. وكل واحد من هؤلاء يلبس رداء خاصا يشبه الرداء الجامعى الذى يلبسه الحاصلون على الدرجات العلمية والأدبية فى الوقت الحاضر .

وكان بين سلاطين الأيوبيين ووزرائهم سادة نجباء وأفذاذ من العلماء لهم قدم راسخة فى العلم والأدب من أمثال القاضى الفاضل الوزير الشهير الذى كان يجتمع فى مجلسه علية القوم .

الفصل السادس

التربية المدرسية العالية

لقد حث الاسلام على التعليم فأقبل المسلمون عليه وانتشر فى المساجد والجوامع فى جميع البلاد الاسلامية وكثرت الحلقات التعليمية فيها بجانب الصلاة والعبادة وأحس المسلمون أنهم حقا فى حاجة الى انشاء مدارس علمية ومعاهد عالية كى لا يحدث ضجيج فى المساجد الضيقة فى أثناء الدرس بسبب الجدل والمناقشة فى الدروس ويرى المقريزى أن المدارس لم تعرف فى عهد الصحابة والتابعين ولم تنشأ الا فى نهاية القرن الرابع الهجرى وأن أهل نيسابور أول من بنوا مدرسة فى الاسلام وسموها المدرسة البيهقية ٠

وقد تسابق الخلفاء والمسلمون فى انشاء المدارس الاسلامية العالية وأعدوها اعدادا كاملا وبنوا فى كل مدرسة كبيرة ايوانا ؛ أى قاعة متسعة للمحاضرات بحيث تسع عددا كبيرا من الطلبة المتشوقين لطلب العلم وقسما داخليا ليقيم فيه الطلاب ويتفرغوا للدراسة ومساكن خاصة بالمدرسين والعلماء الذين يقومون بالتدريس وأنشئوا بها جميع وسائل الراحة من المرافق ودورات المياه والمطبخ الذى تطهى فيه الأطعمة والمطعم الذى يتناولون فيه طعامهم ٠

وكان لكل مدرسة ايراد خاص يؤخذ من الأوقاف التى وقفت على المدرسة للانفاق على طلبتها وأساتذتها ٠

وقد عنيت تلك المدارس بدراسة الدين الاسلامى والفقه على المذاهب السنية الاربعة والتوحيد واللغة العربية ونشر العلوم والمعارف وتقوية مذهب أهل السنة ومقاومة أهل الشيعة وهم أنصار سيدنا على ٠ وهنا نذكر أهم تلك المدارس العالية :

١ ـ المدرسة النظامية ببغداد :

حينما استولى السلاجقة على بغداد وعلى أغلب العالم الاسلامى ظهر اسم الوزير نظام الملك الذى كان السلطان الحقيقى للدولة الأولى للسلاجقة٠ وكان هو نفسه فقيها وعالما (١) فكانت تعقد المناظرات فى حضرته ٠ وقد خرج له الغزالى مرة وناظر الأئمة والعلماء فى مجلسه وقهر الخصوم وظهر كلامه على الجميع فولاه نظام الملك التدريس بمدرسة من المدارس العالية

(١) طبقات الشافعية

الشهيرة وهي المدرسة النظامية ببغداد التي أنشأها ذلك الوزير العظيم نظام الملك • وقد بدىء في بنائها سنة ٤٥٧ هـ وتم بناؤها سنة ٤٥٩ هـ وتقع على شاطىء نهر دجلة • وقد أنشأ كثيرا من المدارس النظامية التي نسبت اليه المدرسة النظامية ببغداد هي المدرسة الأولى منها • وتعد حقا من المدارس العظيمة التي يحق لنا أن نفخر بها • وعين لها الأساتذة والعلماء فانتظمت أحوالها •

ومن أساتذة المدرسة النظامية ببغداد الشيخ أبو اسحق الشيرازي صاحب كتاب التنبيه (١) في الفقه على مذهب الشافعية وهو عالم جليل أحيا من العلم مادرس وكشف من الحق ما التبس، وشرح الاصول وفرعها، وأوضح الادلة وتوعها ، وكان لمكتبة المدرسة النظامية ببغداد فهرس واف دقيق يحتوى على نحو ستة آلاف مجلد وهي موقوفة على تلك المدرسة •

وأنشأ في كل قرية ومدينة مدرسة للعمل على نشر العلم والدين وأمدها بالكتب والمال والمدرسين • قال أبو شامة في كتاب الروضتين : « ومدارس نظام الملك في العالم مشهورة لم تخل بلد من شيء منها » وهي تمثل المدارس في القرون الوسطى وقد أنشأ مدرسة فخمة في كل من البلاد الآتية :

بغداد ، وبلخ ، ونيسابور ، وهرات ، وأصفهان ، والبصرة ، ومرو ، وآمل ، والموصل • وكان في كل من مدن العراق ومدن خراسان مدرسة لنظام الملك وحاكاه غيره من المسلمين في انشاء المدارس فانتشرت في القرى والبلدان والعواصم الكبيرة في البلاد الاسلامية •

ولم تنشأ في مصر مدارس الا بعد أن انتهت دولة الفاطميين وقامت دولة الأيوبيين • ففي عهد الدولة الأيوبية انتشرت المدارس كثيرا في مصر كما انتشرت في سورية وظلت تنتشر في عصر المماليك • وكان لنور الدين زنكي الذي صار ملكا لسورية بعد انتهاء عهد السلاجقة ميل كبير لرعاية الثقافة والعلوم وكان للعلماء عنده مجلس عظيم وكان يجمعهم عنده للبحث والمناظرة واستقدمهم اليه من البلاد الشاسعة الأطراف •

والفرق بين المدرسة والمسجد لا يذكر فالمسجد كان للعبادة والتعليم والنظر في القضايا ومظالم الناس وبالمثل كانت المدرسة غير أنها كانت معدة للدراسة واقامة الطلبة المتفرغين وقد تنافس الخلفاء والأثرياء من

---

(١) طبقات الشافعية جـ ١ ص ٢٥

من المسلمين فى جميع أنحاء العالم الاسلامى فى انشاء المدارس منذ القرن الحادى عشر الميلادى • ويظهر الفن الاسلامى فى مبانى تلك المدارس وخصصت بها أوقاف كثيرة للانفاق منها على من بها من الفقهاء والطلبة والموظفين وكان الطلاب يسكنون فى أقسامها الداخلية كما يحدث الآن فى جامعتى اكسفورد وكمبردج •

٢ ـ المدرسة المستنصرية ببغداد :

وتعد المدرسة المستنصرية التى أنشأها الخليفة المستنصر ببغداد فى القرن الثالث الميلادى من أعظم المدارس الاسلامية• وقد بذل فى تشييدها كثير من المال مما يدل على عناية المسلمين بالتربية والتعليم وتقديسهم للعلم والعلماء • وكان بها قاعة للمحاضرات لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، ولكل مذهب أستاذ خاص ، وكان الطالب يتعلم بالمجان فيها ويتسلم دينارا من الذهب كل شهر وتزود المدرسة طلبتها باللحم والخبز كل يوم • وكان بها مكتبة غنية تشتمل على كتب كثيرة فى جميع العلوم، كى يتمكن الطلبة من الاطلاع على ما يشاءون منها وجعل فيها ما يحتاج اليه من الورق والمداد لاستعمالها وانتفاع المطلعين والناسخين بهما • وكان بها حمامات للاستحمام ومستشفى به طبيب لمعالجة الطلاب •

٣ ـ المدرسة الناصرية بالقاهرة :

وقد ذكر المقريزى ، ان السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصورى بدأ فى بناء المدرسة الناصرية بالقاهرة وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ وقال : انها من أجمل مبانى القاهرة وبابها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم وذكر أيضا عن المدرسة الطيبرسية أنها انشئت بجوار الجامع الازهر سنة ٧٠٩ بالقاهرة •

وقد قامت الدولة الأيوبية بانشاء كثير من المدارس فى مصر واشترك المصريون فى انشائها وأسهم السكان حتى الخدم فى بنائها رغبة فى نشر العلم والتعليم بين المسلمين • وكان فى كل مدرسة مكتبة تزود بالكتب كى يسهل على الطلبة الاطلاع •

وانتشرت المدارس فى مصر وسورية وبغداد وشجع الخلفاء والمسلمون التعليم بكل وسيلة •

ومن المدارس التى أنشأها الملك الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى :

٤ ـ المدرسة النورية الكبرى بدمشق :

وقد زارها ابن جبير ونذكر هنا ما وصفها به مع قليل من التصرف: « من أحسن مدارس الدنيا مظهرا مدرسة نور الدين رحمه الله · وهى قصر من القصور الأنيقة ينصب فيه الماء وسط نهر عظيم وفيه كل ما يحتاج اليه معهد علمى للدراسة العالية · وهو مزود بقسم داخلى كامل المرافق ، وتبعد تلك المدرسة عن الجامع الأموى بدمشق بنصف ميل تقريبا · ومساحتها ١٥٠٠ متر مربع بالتقريب · وبها بيت خاص لمدرس المدرسة ، وأهم مكان بها قاعة المحاضرات ، وهى قاعة كبيرة تسع عددا كبيرا من الطلاب ·· وبالمدرسة مسجد مفتوح لمن يرغب فى العبادة · وهناك استراحة للمدرسين ومساكن للطلبة المقيمين بالقسم الداخلى ومسكن لخادم المدرسة ودورة للمياه ومخزن للأدوات الزائدة بالمدرسة» ·

ويعد ظهور المدارس أهم محاولة فى الاسلام لتنظيم الدراسة والتربية والتعليم فى البلاد الاسلامية وتوفير وسائل التفرغ لطلب العلم بتقديم المساعدات المالية للطلاب وتزويد تلك المدارس بالأساتذة الممتازين والكتب النادرة ·

الفصل السابع

التعليم في دور الكتب

كان لعناية المسلمين بانشاء دور الكتب والمكتبات أثر كبير فى تيسير وسائل الثقافة والتعلم ، وتشجيع الطلاب على الاستمرار فى الدراسة والبحث العلمى • وقد انتشرت المكتبات فى الاسلام انتشارا عظيما يدعو الى الفخر والاعجاب فقد كان فى معظم المساجد والجوامع والمدارس ودور العلم ودور الحكمة مكتبات كبيرة مزودة بالكتب المختلفة والمراجع النادرة ليرجع اليها الطلبة والعلماء والقراء والنساخ فى أى وقت شاءوا •

وقد ذكر المقريزى أن المدرسة الفاضلية ألحقت بها خزانة عظيمة للكتب بلغ عدد مابها [١٠٠ر٠٠٠ كتاب] وهذا كان فى عصر لم تخترع فيه المطابع والطباعة • وأشار ابن القفطى الى مكتبة كان عدد مااشتملت عليه من الكتب فى الهندسة وعلم الفلك ٦٥٠٠ كتاب كما كان بها كرة أرضية لبطلميوس وكرة أخرى لأبى الحسن الصوفى اشترينا بمبلغ ٣٠٠٠ دينار • وهـذا كله يدل على تشجيع الاسـلام والمسلمين للعلم والبحث العلمى منذ قرون طويلة •

وقد ذكر ياقوت فى كتابه معجم الأدباء أنه كان بكركر(١) ضيعة نفيسة لعلى بن يحيى بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون صنوف العلم وتقدم لهم الكتب وينفق عليهم من مال على بن يحيى • فهذه مكتبة كان الطلاب يجدون فيها الكتاب والمسكن والطعام وهى كالمدرسة ولا ينقصها الا المدرس •

كما ذكر ياقوت أيضا أنه كان فى مدينة واحدة من مدن خراسان عشر دور للكتب منظمة وتشتمل احداها على ١٢٠٠٠ مجلد •

وكان من أشهر دور الكتب فى الأندلس خزانة الحكم الثانى التى بلغ عدد ما كان بها من الكتب ٤٠٠٠٠٠ كتاب • وقد تنافس المسلمون بحماسة لا نظير لها فى انشاء دور عامة للكتب ، ولم تسلم النساء من حب اقتناء الكتب وجمعها اذ كثر بينهن انشاء المكتبات ولا نبالغ اذا قلنا ان العبيد لم يسلموا من العدوى فكان لبعضهم أثر كبير فى انشاء المكتبات

---

(١) قرية قريبة من بغداد •

واقتناء الكتب وتزويدها بها مع انها كانت غالية الثمن لانها مخطوطات كتبت باليد · ولغلو أثمانها كان لا يقتنيها الا الأغنياء ·

ولنشر العلم بين الفقراء المتعطشين الراغبين فيه أنشئت دور الكتب وفتحت للجميع وكانت بمثابة معاهد دينية وأدبية وعلمية · وكان بعض الاغنيـاء من المسلمين ينشـئون المكتبات العامة ويعدونها اعدادا كاملا ويسمحون للطلبة بالانتفاع بها والاطلاع فيها والاقامة بها وتناول الطعام بالمجان فيها ·

فالمكتبات الاسلامية ثلاثة أنواع :

(أ) مكتبات عامة ·

(ب) مكتبات بين العامة والخاصة ·

(جـ) مكتبات خاصة ·

ولنتكلم عن كل منها فنقول :

(أ) المكتبات العامة :

هى التى أنشأتها الدولة بالمساجد والجوامع والمدارس لتساعد فى دراسة العلوم والآداب والمعارف ومنها :

١ ـ بيت الحكمة :

هو بيت أسسه الخليفة هارون الرشيد ببغداد وعنى به المأمـون لحبه للعلوم والآداب ولا عجب فقد كان واسع الثقافة حر التفكير وكان فى مكتبة بيت الحكمة كثير من الكتب والمخطوطات بلغات مختلفة منها الكتب القبطية واليونانية القديمة والهندية والفارسية والآرامية · وقد ترجمت الى اللغة العربية فكانت تراثا خالدا ·

وكان بيت الحكمة يعد أول مكتبة عامة لها شأن كبير فى العـالم الاسلامى وأول جامعة اسلامية وأول مؤسسة دينية أدبية علمية فلسفية اجتمع فيها العلماء البارزون وقصدها الطلاب المسلمون وأعطت الطلبة الفرصة فى التزود بالدراسات والتوسـع فى الثقافة الأدبية والعلمية والطبية والفلسفية ·

وكان عصر المأمون أزهى العصور الثقافية لبيت الحكمة فقد كان المأمون مثقفا ثقافة عالية أديبا واسع الاطلاع ذا ذوق أدبى نادر فمنحه كل عنايته ورعايته ·

٢ ـ دار الحكمة بالقاهرة :

وقد أنشأها بالقاهرة الحاكم بأمر الله الفاطمى فى يوم السبت العاشر من جمادي الآخرة سنة ٣٩٥ هـ · وكانت تلك الدار معهدا دراسيا عظيما للدراسة والتعلم والقراءة والاطلاع ونسخ الكتب · أعدها الحاكم بأمر الله اعدادا كاملا وزودها بكثير من الكتب النفيسة والمخطوطات النادرة فى الدين ، والعلوم والآداب وأمدها بما يحتاج اليه الناسخون من أقلام ومحابر وأوراق · وجلس فيها الفقهاء والقراء وعلماء النحو واللغة والاطباء وعلماء الفلك وعين للأساتذة مرتبات كبيرة وللخدم والقراشين أجورا مناسبة وأمر بفتح أبوابها لكل من يشاء الانتفاع بها والاستمتاع بما يلقى فيها من محاضرات ومناقشات علمية وأدبية ودينية واستمرت دار الحكمة بالقاهرة مفتوحة الأبواب حتى أوائل القرن السادس الهجرى ·

وقد ذكر المقريزى فى خططه(١) أن دار الحكمة بالقاهرة لم تفتح أبوابها للجماهير الا بعد أن فرشت وزخرفت وعلقت الستور على جميع أبوابها وممراتها · وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم كلفوا خدمتها ·

٣ ـ دار العلم أو خزانة الكتب لسابور :

وقد أسسها أبو نصر سابور بن أردشير سنة ٣٨٣ هـ واشتاع لهـا دارا بالكرخ وبناها أحسن بناء ، وسماها دار العلم ووقف عليهـا أوقافا للانفاق منها على دار العلم · وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان (٢) أنه كان بها ١٠٤٠٠ مجلد فى العلوم المختلفة ·

وكانت دار العلم مركزا ثقافيا للبحث والدراسة والاطلاع والمناظرات والمحاورات والمجادلات يجتمع فيها الباحثون والمتناظرون والمحـاضرون والعلماء والأدباء · وكان الفيلسوف الكبير أبو العلاء المعرى لا يتركها ولا ينقطع عنها اذا ذهب الى بغداد ·

وكان معظم العلماء والأدباء الفلاسفة يوقفون ما عندهم من النسخ والكتب التى يملكونها أو يؤلفونها لدار العلم ببغداد لتخليدها ·

---

(١) جـ ١ ص ٤٥٨ ·

(٢) جـ ٢ ص ٣٤٢ ·

٤ ـ مكتبات المدارس :

حينما دعت الحاجة الى انشاء المدارس الاسلامية فى مصر وسورية والعراق وخراسان وغيرها من الامبراطورية الاسلامية كان فى كل مدرسة مكتبة مزودة بكثير من الكتب الكبيرة والصغيرة فى مختلف العلوم · وأشهر المكتبات المدرسية : مكتبة المدرسة النظامية ببغداد التى أنشأها نظام الملك وزودها بكثير من الكتب الثمينة والمخطوطات النادرة ومنها كتاب « غريب الحديث » لابراهيم الحزمى فى عشرة مجلدات · وقد ظلت المدرسة النظامية موضع عناية الخلفاء والعظماء كما قلنا ·

(ب) المكتبات التى بين العامة والخاصة :

ومن المكتبات التى بين العامة والخاصة مكتبات غنية عظيمة كان يملكها الخلفاء والملوك ومنها مكتبة الناصر لدين الله ومكتبة المعتصم بالله ومكتبة الفاطميين التى أنشـئوها بالقاهرة ونافسوا بها خلفاء بغـداد وجعلوها فى القصر الفاطمى · ويقال انها كانت من عجائب الدنيا ولم يكن فى جميع البلاد الاسلامية دار كتب أعظم منها· وكان بها ١ر٦٠٠ر٠٠٠ كتاب وقيل ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ كتاب فى الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك وعلم الفلك والروحانيات والكيمياء ·

(ج) ومن المكتبات الخاصة التى أنشاها العلماء والأدباء لاستعمالهم الخاص مـكتبة الفتح بن خاقان ومـكتبة جمال الدين القفطى ومـكتبة عماد الدين الأصفهانى ·

وكما اهتم المسلمون بالكتب واقتنائها اهتموا بدور الكتب وخزائنها وحرصوا عليهـا وقدروها حق قدرها وكتبوا كثيرا عن أثرها فى تهذيب العقول وبث البطولة فى النفوس وتزويد القراء بالأفكار والآراء ·

وقد هجم جنود من خراسان على دار ابن العميد وسرقوا ما فيها من أثاث وخزائن ولكنه لم يفكر الا فى خزانة كتبه فقد كانت ثمينة ، بها كثير من الكتب العلمية والأدبية والدينية تبلغ مائة حمل وزيادة فلما رأى ابن العميد ابن مسكويه خازن كتبه سأله عنها فأجاب : هى بحالها لم تمسها يد فسرى عن ابن العميد وقال لابن مسكويه : أشهد انك ميمون النقيبة ، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض وأما هذه الخزانة فهى التى لا عوض لها ·

تقدير المسلمين للكتب والمكتبات ·

كانت الكتب غالية الثمن فى العصور الاسلامية القديمة لأنها مخطوطات يكتبها الناسخون الذين يحسنون الكتابة باليد ويعرفون بالدقة فى النقل والأمانة فى العمل ؛ فكان لا يقتنيها الا الأغنياء القادرون على شرائها من المسلمين · وكان المسلمون الأثرياء فى العصور الماضية يقومون بتعيين ناسخين فى المكتبات لنسخ الكتب التى يريدونها بأجر سخى فنفعوا العلم والأدب بما نقل لهم من الكتب النفيسة · وكان النساخ يتبادلون العمل نهارا وليلا بحيث لا ينقطع النسخ فى أى وقت من أوقات النهار أو الليل · وهذا أكبر دليل على تقدير المسلمين للعلوم والآداب · وكان المأمون يعطى حنين بن أسحق من الذهب زنة ماينقله من الكتب الى اللغة العربية مثلا بمثل · وقد عنى الواثق عناية كبيرة بالمترجمين الذين نقلوا الكتب الأجنبية الى اللغة العربية ·

وكان بمكتبة بنى عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخا ينسخون الكتب بأيديهم ·

وكانت المكتبات وحوانيت الوراقين فى أوائل العصر العباسى تتخذ للتجارة فى الكتب وبيعها وشرائها كما تتخذ للقراءة والاطلاع والمناقشات العلمية والأدبية والدينية بين العلماء والأدباء والفقهاء الذين يجتمعون فيها كل يوم للبحث والدراسة والجدل والنقاش ·

وقد تعددت تلك المكتبات التجارية فى عواصم البلاد الاسلامية وكثرت كثرة كبيرة تدل على اقبال المسلمين على العلوم والآداب والبحوث الدينية ونشر الثقافة والتربية والتعليم فى جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية ·

وكان بمصر فى أيام الطولونيين والاخشيديين سوق كبيرة لحوانيت الوراقين لبيع الكتب ونسخها والمناظرات والمناقشات أحيانا ·

وكان بائعو الكتب فى معظم الأحيان مثقفين ثقافة علمية أدبية ودينية يشاركون العلماء والأدباء والفقهاء فى بحثهم واطلاعهم وتأليفهم ونقاشهم · ومن الوراقين الذين شغلوا أنفسهم بالتأليف ابن النديم صاحب كتاب الفهرست وياقوت الحموى مؤلف معجم الأدباء ومعجم البلدان ·

وكان الوارقون يقومون قبل اختراع الطباعة بنسخ الكتب ونقلها وبيعها لمن يريدها · وكان الجاحظ يكترى حوانيت الوراقين ويبيت فيها

للنظـر والبحث والقراءة والاطلاع على مافيها من كتب متنـوعة • وكان الطلبة والعلماء يقبلون عليها كل الاقبال ويقرءون ويشتركون فى المناقشات والمناظرات وانشاء الاشعار •

وكان فى مصر سـوق لحوانيت الكتب بين الصاغة والمدرسـة الصالحية • وقبلها كان هناك سوق للكتب تجاه الناحية الشرقية من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة • وقد أنشد بعض الشعراء قديما :

مجالسة السـوق مذمومة ومنهـا مجالس قد تحتسب
فلا تقربن غير سـوق الجيـاد وسوق السـلاح وسوق الكتب
فهاتيك آلة أهـل الوغى وهاتيك آلة أهل الأدب

وكان فى بغداد فى القرن السادس الهجرى سوق كبيرة للوراقين وتجار الكتب هى مجلس العلماء والأدباء والشعراء •

وكان لحوانيت الوراقين أثر علمى وأدبى وعقلى فيمن يتصلون بهم من أسرهم وغيرها • ومن أمثلة تأثير البيئة العلمية والأدبية فى الأسرة زينب وحمدة ابنتا زيد الوراق التاجر فى الكتب الذى كان يعيش فى وادى الحمى بالقرب من غرناطة فقد عرفتا بسعة الاطلاع والتبحر فى العلوم والآداب وكانتا على قدم المساواة مع الأساتذة والعلماء والأدباء فى ذلك العصر •

ولم تكن الثقافة العلمية والأدبية والدينية مقصورة على الأساتذة والطلاب وأصحاب المكتبات بل كانت عامة بين المسلمين فقد انتقل النشاط العلمى والأدبى والثقافى من حوانيت بائعى الكتب الى حوانيت البيـع والشراء •

قيل ان شابا رحل وسافر الى بغداد كى يطلب العلم بها • فقرأ ما شاء الله أن يقرأ ودرس ما أراد أن يدرس ثم أراد العودة الى أهله ووطنه • فاستأجر دابة ليركبها ويسافر بها من بغداد الى بلده ولكنه قبل أن يركب وقف ينتظر قليلا حتى يشترى صاحب الدابة شيئا من الأشياء من حانوت أحد التجار فسمع الطالب الشاب نقاشا علميا يدور بين اثنين من أصحاب الحوانيت التجارية القريبة فأعجب الطالب كل الاعجاب بهذا النقاش بين التاجرين وتأثر منه كل التأثر وطلب من صاحب الدابة أن يعيده ثانية الى محل اقامته ببغداد وقال له : ان بلدا باعته فى هـذه المنزلة من العلم لا ينبغى أن يرحل عنه •

فالثقافة بين المسلمين كانت عامة والعلم كان منتشرا وسوق الأدب

كانت رائجة وكنت تجد علماء وأدباء ومثقفين بين العـــامة من المسلمين كالتجار وغيرهم وكان للكتب لدى المسلمين منزلة كبيرة وتقدير عظيم فقد حدث أن أرسل أحد الخلفاء ليطلب عالما من العلماء ليسامره ويتحدث معه فلما جاء الخادم الى العالم وجده جالسا وحوله كثير من الكتب يقرؤها ويطلع عليها ٠

فقال له الخادم : ان أمير المؤمنين يستدعيك ٠

قال العالم : قل له ٠٠ عندى قوم من الحكماء أحادثهم ٠ فاذا فرغت منهم حضرت اليه ٠

فلما عاد الخـــادم الى الخليفـــة وأخبره بذلك قال له : ويحك : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده ؟

قال الخادم : والله ياأمير المؤمنين ماكان عنده أحد ٠

قال الخليفة : فأحضره الساعة كيف كان ٠

فلما حضر ذلك العالم قال له الخليفة : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟

قال العالم : يا أمير المؤمنين :

هم جلساء ما نمل حديثهم ... أمينون مأمونون غيبا ومشهدا
اذا ماخلونا كان خير حديثهم ... معينا على نفى الهموم مؤيدا
يفيدوننا من علمهم علم مامضى ... وعقلا وتأديبا ورأيا وسؤددا
فلا ريبة تخشى ولا سوء عشرة ... ولا نتقى منهم لسانا ولا يدا
فان قلت: أموات فلست بكاذب ... وان قلت : أحياء فلست مفندا

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك الى الكتب فأعجب به ولم ينكر عليه تأخره ٠

وقال الجاحظ فى تقدير ما فى الكتاب من العلوم والآداب والمعارف والآراء والتجارب والافكار : « لا أعلم ما جاء فى حداثة سنه ولا قرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع بين السير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة ما يجمعه كتاب ٠ ومن لك بزائر ان شئت كانت زيارته رغبا وان شئت لزمك لزوم الظل وكان منك كما كان بعضك » (١) ٠

---

(١) المحاسن والاضداد ص ٢ ٠

« والكتاب صامت ماأسكته وبليغ مااستنطقته مسامر لا يبتديك فى حال شغلك ويدعوك فى أوقات نشاطك ولا يحوجك الى التجمل له والتذمم منه . وهو جليس لا يطريك وصديق لا يغريك ورفيق لا يملك ولا يخدعك بالنفاق ولا يحتال لك بالكذب » (١) .

وكان المسلمون ـ وما زالوا ـ يقدرون الكتب كل التقدير ويعجبون بها كل الاعجاب فقد اعتكف محمد بن عبد الملك الزيات فترة من الزمن ونوى الجاحظ أن يزوره ، فى بيته وفكر فى شىء يهديه اليه فلم يرقه شىء كما راقه كتاب سيبويه وتسلم ابن الزيات الهدية قائلا للجاحظ : والله ما أهديت لى شيئا أحب الى منه .

وكان علماء المسلمين يفضلون الجلوس فى مكتباتهم الغنية بالكتب للقراءة والاطلاع على أن يتولوا أعظم المناصب والمراكز لدى الولاة والحكام . وكانوا يرسلون من يجوبون البلاد لشراء الكتب العلمية والأدبية من البلاد الأجنبية ليزودوا مكتباتهم بالكتب النادرة والنفيسة والجديدة .

وقد سمع الحكم صاحب الاندلس بكتاب الاغانى فارسل الى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب فبعث اليه نسخة منه .

وكان وجود المكتبة بالبيت يعد متمما لتأثيثه وزينته ولو لم يكن صاحب البيت مطلعا عالما . فقد روى المقـــريزى فى نفح الطيب (٢) عن الحضرمى أحد علماء الأندلس انه قال : أقمت مدة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب به لى بطلبه اعتناء الى أن وقع هو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع الى المنادى بالزيادة على أن بلغ فوق حده فقلت للمنادى : أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى وصل ثمنه الى ما لا يساويه فأرانى شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه فقلت له : أعز الله مولانا الفقيه ، ان كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت فيه الزيادة بيننا فوق حده .

فقال لى : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ولكنى أنشأت خزانة كتب لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بارتفاع ثمنه .

وكان المسلمون فى العصور الذهبية للاســـلام مثقفين يعنون عناية

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٢) ج ١ ص ٢١٨ .

كبيرة بدور الكتب العامة فى القاهرة وبغداد وقرطبة وشيراز وغيرها من البلاد الاسلامية • وكان فى تلك الدور حجر للاطلاع وحجر للنسخ وقاعات للمحاضرات وحلقات الدراسة وحجرات للموسيقا لتجديد نشاط القراء • وأثثت تلك الحجرات بأثاث فخم مريح وفرشت أرضها بالسجاجيد والبسط والحصر ووضعت على الأبواب والنوافذ ستائر جميلة وكانت الكتب فى المكتبات الاسلامية توزع فى الحجرات على حسب موضوعاتها •

وقد كتب ابن سينا يصف مكتبة السامانيين التى انتفع بها فى بخارى : « دخلت دارا ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض فى بيت منها كتب العربية والشعر وفى آخر الفقه وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد » •

وكانت المكتبات غنية بالكتب مملوءة بكثير من الذخائر ولها فهارس منظمة • ويحكى ابن سينا انه رأى من الكتب فى مكتبة السامانيين مالم يقع اسمه قط الى كثير من الناس وما كان رآه من قبل ولا رآه أيضا من بعد •

وكانت المكتبات مرتبة ترتيبا حسنا وفهارسها منظمة تنظيما دقيقا كى يسهل الحصول على مافيها من كتب والانتفاع بها من غير تعب •

وكان فى كل مكتبة أمين خاص بها ونساخون لنسخ الكتب ومترجمون للترجمة ومجلدون للتجليد ومناولون لتقديم الكتب للراغبين فى القراءة •

وكان أمناء المكتبات يختارون من العلماء والأدباء والمؤلفين المشهورين والأساتذة المثقفين الذين يستطيعون دراسة الكتب والحكم عليها مثل : سهل بن هارون وابن مسكوية وأبى يوسف الاسفراييني •

وفى أرقى الدول الآن يعد أمين المكتبة مرجعا للطلاب والأساتذة كما كان أمناء المكتبات فى عصر الدولة العباسية •

الفصل الثامن

التعليم فى البادية :

كان العرب فى الجاهلية يعجبون بلغتهم العربية ويقدرونها حق قدرها ويتأثرون كثيرا بالادب العربى · فالقصيدة الحماسية أو الخطبة النارية تقودهم للحرب وأبيات العفو والصفح تميل بهم الى الاخاء والسلم· وبعد أن ظهر الاسلام زاد اعجابهم بالعربية الفصحى فقد كان القرآن الكريم فى أرقى درجات البلاغة العربية وكان الرسول صلى الله عليه وسلم عربيا مبينا ·

وقد استمرت لغة العرب فصيحة خالية من الخطأ حتى صدر الاسلام ولكن اختلاط العرب بغيرهم قد أدى الى وجود اللحن بينهم · وكان اللحن يعد عيبا كبيرا لا يصح أن يرتكب فقد روى ان رجلا لحن فى حضرة النبى محمد فقال الرسول لاصحابه :

« ارشدوا أخاكم فقد ضل »

وبانتشار الاسلام اضطر المسلمون من العرب الى الاختلاط بالفرس والاجانب المختلفين فى اللغة فى المدينة ودمشق وبغداد والكوفة والبصرة وتزوج العرب أجنبيات ففسد اللسان العربى فى المدن والبيوت ولم يستطع الاجانب معرفة قواعد اللغة العربية كما ينبغى فظهرت لغة المولدين وبدأ الخطأ فى الكتابة والتخاطب ·

ولم يقتصر اللحن على الأعاجم بل تجاوزهم الى العرب أنفسهم· وكان العرب ينفرون ممن يلحن فى اللغة العربية · وقد قيل ان كاتبا لأبى موسى الاشعرى كتب الى سيدنا عمر بن الخطاب « من أبو موسى (١) الاشعرى » فكتب عمر الى أبى موسى أن يضرب كاتبه سوطا ·

ودخل اعرابى السوق فسمع الناس يلحنون فقال : سبحان الله : يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح · وممن وقعوا فى اللحن الوليد بن عبد الملك والحجاج بن يوسف وشبيب بن شيبة وغيرهم · وكان اللحن أكثر خطرا عندما وقع فى القرآن فغير المعنى تغييرا يؤدى بصاحبه الى الكفر لو قصد كاللحن الذى وقع فى الآية الكريمة : « هو الله الخالق البارىء المصور » فقد قرأها قارىء المصور بفتح الواو · وكالأعرابى

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٤ ·

الذى أقراه رجل سورة براءة ولحن فى تعليم الآية الكريمة : ان الله برىء من المشركين ورسوله ، فاقراها له : « ان الله برىء من المشركين ورسوله بكسر اللام • فقال الأعرابى : ان يكن الله بريئا من رسوله فأنا ابرأ منه أيضـــا •

وفى الوقت الذى انتشر فيه اللحن فى اللغة العربية فى المـدن لاختلاط العرب بالأعاجم فيها بقيت لغة العرب سليمة تماما فى البـادية والصحراء لعدم الاختلاط فيها • فاللغة الصحيحة كانت تؤخذ عن البدو بالمحاكاة والتلقين والاستماع •

وانتهز عـرب البادية فرصـة انتشار اللحن فى المدن الاسـلامية فسافروا الى المدن وأخذوا يعلمون الناس اللغة العربية الفصيحة واتخذوا التعليم مهنة لهم •

وقد اكتفى بعض الناس التعلم من البدو فى المـدن والقرى ولـكن هناك آخرين لم يكتفوا بهذا التعلم بل هجروا المدن والعواصم والمدينـة وذهبوا الى البادية وعاشوا فيها ليتعلموا لغة العرب فى منبعها الأصـيل ويتجنبوا استماع لغة المولدين •

فبالبادية كانت تقوم بواجب تعليم النشء اللغة العربية الخالصة فى القرنين الأول والثانى من الهجرة •

وكانت صحراء سورية تتخذ مدرسة للأمراء من بنى أمية لتعليمهم اللغة الفصيحة الخالية من العجمة حتى يكسبوا ذوقا يتذوقون به فنـون الشعر والأدب •

ولم يقصد الصحراء لدراسة اللغة العربية الفصحى الأمراء وحسب بل قصدها أيضا كثير من العلماء والأدباء والفقهاء ومنهم :

(١) الخليل بن أحمد (١) فقد سأله الكسائى مرة : من أين علمك هذا ؟ فأجاب : من بوادى الحجاز ونجد وتهامة •

(٢) وبشار بن برد (٢) فقد قيل له مرة : ليس لأحد من شـعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه وانه ليس فى شعرك ما يشك فيه •

قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت ههنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ • وان دخلت

الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم وأيفعت فأبديت الى أن أدركت فمن أين يأتيني الخطأ ؟

(٣) والكسائى (٣) خرج الى البادية وتعلم فيها وأنفد خمس عشرة قنينة من الحبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظه ٠

(٤) والامام الشافعي (٤) قال فى وصف حياته الاولى : « ثم انى خرجت عن مكة فلزمت هذيلا فى البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها وكانت أفصح العرب فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم: فلما رجعت الى مكة جعلت أنشد الاشعار وأذكر الآداب والاخبـار وأيام العرب » ٠

وكانت اللغة العربيـــة الفصحى وحدها هى اللغة المستعملة فى البادية وكان بها حلقات علمية وأدبية يعقدها كثير من المثقفين والأفذاذ من البدو ليرووا أجود الشعر ويقرءوا ســـيرة العـرب وتاريخ وقائعهم وحروبهم وحياة السابقين من ابطالهم ٠

الفصل التاسع

التربية والاخلاق فى الاسلام

ان المثل الأسمى فى التربية الاسلامية هو التربية الخلقيـــة التى تعمل على تكوين رجال مهذبين وسيدات مهذبات ، ذوى نفوس أبيةوارادة قوية وعزيمة صادقة وأخلاق عالية ، يعرفون معنى الواجب ويقومون به ، ويقدرون حقوق الانسانية ويميزون الغث من السمين والحسن من القبيح ويختارون الفضيلة حبا للفضيلة ويجتنبون الرذيلة لانها رذيلة ويراقبون الله فى كل عمل يعملونه . وحينما أراد الله أن يثنى على نبيـه الكريم خاطبه بقوله : «وانك لعلى خلق عظيم» وقال صلوات الله عليه : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنهللرسول الكريم : لقد طفت العرب وسمعت فصحاءهم فما رأيت ولا سمعت مثلك أحدا ... فمن أدبك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

ولله در المرحوم شوقى حيث يقول :

وانما الأمم الأخـلاق ما بقيت ... فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وان الغرض من التربية الخلقية فى الاسـلام تكوين رجال كريمى الاخلاق أقوياء العزيمة مهذبين فى أقوالهم وأفعالهم نبلاء فى تصرفاتهم وخلقهم ، ديدنهم الحكمة والكمال والآداب والاخلاص والطهارة ! فروح التربية الاسلاميةهى التربية الخلقية .ولقد أجمعفلاسفة التربية الاسلامية على أن الغرض الخلقى الذى يجب أن يرمى اليه المربى هو الغرض الحقيقى من التربية التى يصح أن نطلق عليها ذلك الاسم وليس معنى هـــذا أن نقلل العناية بالتربية الجسمية أو العقلية بل معناه أن نعنى بالناحيـــة الخلقية الاسلامية وتكوين الخلق الكامل كما نعنى بالناحيـــة الجسمية والناحية العقلية والعلمية فالطفل فى حاجة الى قوة فى الجســـم والعقل والخلق بحيث يعنى بجسمه ويفكر بنفسه ويبحث وراء الحقيقة ويقول الحق ويدافع عن الحق ويخلص فى عمله الاخلاص كله ويضحى بمصلحته فى سبيل المصلحة العامة ويتمسك بالفضيلة ويتجنب الرذيلة .

وقد اتفق علماء التربية الاسلامية على أن العـــلم الذى لا يؤدى الى الفضيلة والكمال لا يستحق أن يسمى علما وانه ليس الغرض من التربية والتعليم حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات بل الغرض تهذيب الأخلاق مع

العناية بالصحة والتربية البدنية والعقلية والوجدانية والعملية ، واعداد الطفل للحياة الاجتماعية · فالاخلاق الكاملة هى الغرض الاول والأسمى من التربية الاسلامية فليس الغرض من تعليم الطفل أن نعلمه من العلم مالم يعلم بل الغـرض أن نبث فيه الفضيلة ونعـــوده الاخلاق الكريمة والآداب الاسلامية والمعاملة الحسنة حتى تكون الحياة طاهرة ·· كلها طهارة واخلاص ·

وان التربية الاسلامية توجب على المدرس أن يذكر دائما اننا لسنا فى حاجة الى العلم وحسب ولكننا فى حاجة دائما الى الاخلاق الفاضلة كما يذكر أن تكوين العادات الخلقية الحسنة فى المتعلمين من التمرن على البر والتقوى والصدق فى القول والوفاء بالوعد والاخلاص فى العمـــل وأداء الواجب ومساعدة الضعيف والاعتماد على النفس والمثـــابرة على العمـل والمحافظة على الوقت · ومراعاة العدالة فى كـل أمر أكثر فائدة لهم من حشو أذهانهم بمعلومات نظرية ربما لا يحتاجون اليها فى الحياة العملية· وكما أن الوقاية خير من العلاج فى عالم الطب فالمحافظة على الاخلاق الفاضلة خير من اصلاحها فى عالم الاخلاق ·

وتتطلب التربية الاســـلامية من المعلم أن يتخذ التعليم والدروس وسائل نافعة فى تكوين العادات الحسنة لدى المتعلم وفى تهذيب أخلاقه واحياء ضميره وتقوية ارادته وتربية حواسه وتوجيه ميوله الفطرية الى الطريق المستقيم وتعويده فعل الخير واجتناب الشر ·

العناية بالتربية الخلقية من الطفولة :

لقد أحس فلاسفة التربية الاسلامية بأهمية المرحلة الاولى من الطفولة فى التربية الخلقية وتعويد الاطفال العادات الخلقية الحسنة من الصغر واتفقوا جميعا على ضرورة العناية بتربية الاطفال تربيـــة كاملة فى أول مرحلة من حياتهم · فقديما قالوا : « التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر، والتعلم فى الكبر كالنقش على الماء » ولا عجب فقد قال فلاسفة التربيـــة الحديثة فى القرن العشرين ان الطفل يأخذ الطابع الذى يلازمه طول حياته فى السنوات الخمس الاولى · وفى هذا المعنى قال ابن الجوزى فى كتابه « الطب الروحانى » : أقوم التقويم ما كان فى الصغر فأما اذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعبا » ومعنى هذا ان التربية الخلقية المثلى يجب أن تبدأ فى البيت والأسرة من الصغر ولا يترك الطفل من غير تربية وتقويم وتهذيب بل يربى فى الطفولة حتى لا يعتاد عادة من العادات

القبيحة فانه اذا ترك وطبعه وأهمل ولم يهذب واعتاد عادات سيئة كان من الصعب رده عن تلك العادات وحمله على تركها فالوقاية خير من العلاج.

وسائل التربية الخلقية فى الاسلام :

ان للتربية الخلقية فى الاسلام وسائل منها :

١ ـ الطريقة المباشرة وهى طريقة الوعظ والارشاد والنصح وذكر الفوائد والمضار بأن توضح للمتعلمين الامور النافعة والضارة وتعظهم وترشدهم الى الخير وتحثهم على التحلى بمكارم الاخلاق وتجنب الرذائل . وكثيرا ما يستعمل الشعر للاغراض الخلقية لأوزانه الموسيقية وعباراته الجميلة وقافيته المؤثرة وقوة تأثيره فى النفوس . ولهذا تجد الكتب الاسلامية فى الأدب والتاريخ مملوءة بالحكم والوصايا والمواعظ ويتبع الامريكيون بالولايات المتحدة هذه الطريقة فى التربية ولنذكر هنا بعض الحكم والوصايا المعروفة فى تربية الاطفال تربية خلقية .

الأدب خير ميراث ، وحسن الخلق خير قرين ، والتوفيق خير قائد ، والاجتهاد أربح بضاعة . ولا مال أعود من العقل . ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا ظهير أوثق من المشورة . ولا وحدة أوحش من العجب .

وقد أوصت اعرابية ابنها وقد أراد سفرا فقالت :

أى بنى اياك والنميمة فانها تزرع الضغينة بين المحبين . واياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا . وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ... واياك والجود بدينك والبخل بمالك . واذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك . ولا تهزز اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها . ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به وما استقبحت من غيرك فاجتنبه فان المرء لا يرى عيب نفسه ... والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم . ومن جمع العلم والسخاء فقد أجاد ربطتها « ملاءتها » وسربالها .

٢ ـ الطريقة غير المباشرة فى التربية الخلقية وهى طريقة الايحاء كأن يلقن الاطفال أحسن الشعر فى الحكم وأحسن النصائح والاخبار ويمنعوا النظر فى الشعر السخيف وما فيه من ذكر العشق وأهله . ولا عجب فقد كان علماء التربية الاسلامية يؤمنون بأثر هذه الحكم والنصائح والقصص فى تهذيب أخلاق الاطفال لانها تعتمد على الايحاء الخارجى وقد أثبتنا فى علم النفس أن له أثرا كبيرا فى تربية الاطفال فهم يصدقون كل ما يسمعون ويثقون فى كل ما يقرءونه فى كتبهم . ويتأثرون بتلك الاشعار

والحكم العربية والوصايا الخلقية • وفى استطاعة المدرس أن يوحى الى الاطفال كثيرا من الاخلاق الفاضلة كالصدق فى القول والأمانة فى العمل والعدالة فى الحكم والصراحة والشجاعة والاخلاص •

٣ ـ الانتفاع بما لدى الاطفال من ميول وغرائز فطرية فى تربيتهم تربية خلقية فعندهم مثلا ميل لمحاكاة من يتصلون بهم فىأقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم • ولهذا كان فلاسفة الاسـلام يتطلبون من مؤدب الاطفال أن يكون متحليا بالفضيلةمعروفا بالاخلاق النبيلةمتجنبا للرذيلة• وفى هذا المعنى قال عتبة بن أبى سفيان يوصى مؤدب ولده :

« ليكن اصلاحك ابنى اصلاحك لنفسك فان عيوبهم معقودة بعيبك فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح ما استقبحت ••• » وبالمثـل أوصى ابن سينا الفيلسوف الطبيب : «أن يكون مع الصبى فىمكتبه صبية حسنة آدابهم مرضية عاداتهم لان الصبى عن الصبى ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس » فالتلميذ يحاكى أستاذه وزملاءه قصدا ومن غير قصـد فيما يقولون وما يفعلون ويأنس بما يأنسون ويشاركهم فيما يشعرون •ولهذا يوصى ابن سينا باختيار البيئة التى تتصل بالطفل ويتصـل الطفل بها واختيار الاطفال المهذبين الذين يختلط بهم فى المدرسة • وقد صدق ابن سينا فى قوله « وثبت فى علم النفس أن الطفل بطبيعته يحاكى ما يحدث فى المجتمع الذى يحيط به حسنا كان أو قبيحا فهو يحاكى من يعيشون معه أو يتصلون به من حيث لا يشعر ولا يشعرون • لهذا أوصى ابن سينا بما ينادى به علم النفس اليوم ـ بأن المقلد يجب أن يكون قدوة طيبـة ونموذجا حسنا حتى لا يترك أثرا سيئا فى نفس الطفل المقلد •

فللمحاكاة أثر كبير لا فى التعليم وحسب بل فى التربية الخلقيـة والعقلية أيضا • والتقليد عامل رئيسى فى المرحلة الاولى لتكوين العـادة فالطفل يرى الشىء يفعل أمامه فيحاكيه ويكرره حتى يصير عادة له • وانه فى الواقع يحاكى أبويه وأخواته واخوته الكبار ولكنه يكسب عن محاكاة الصغار أكثر مما يكسبه من محاكاة الكبار وهذا ما يقصده ابن سينا من قوله : ان الصبى عن الصبى ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس •

وقد استعان فلاسفة الاسلام بما لدى الطفل من ميلفطرىللاجتماع بغيره من الاطفال فأعطوه الفرصة فى أن يرسل الى كتاب أو مدرسة حيث يجد أطفالا آخرين يشترك معهم فى التعلم ويختلط بهم ويتشجع بما يراه من تقدمهم فينافسهم منافسة شريفة ويجتهد فى أن يصل الى ما وصلوا اليه من النجاح فى دراستهم•والى هذا يشير ابن سينا فىكتاب السياسة

بقوله : « ثم يحادث الصبيان والمحادثة تفيد انشراح العقل وتحل منعقد الفهم لأن كل واحد من أولئك انما يتحدث بأعذب ما رأى وأغرب ماسمع فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه والتعجب منه سببا لحفظه وداعيا الى التحدث به ، ثم انهم يترافقون ويتعارضون ·· ويتعارضون الحقوق· وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاةوالمساجلة والمحاكاة وفى ذلكتهذيب الاخلاق وتحريك لهممهم وتمرين لعاداتهم » ·

فابن سينا قد نادى بما ينادى به علماء النفس والتربية والاجتماع اليوم من أن الانسان يميل بطبعه الى الاختلاط بغيره لانه اجتماعى بفطرته وشخصيته لا تقوى الا فى بيئة اجتماعية حيث يستطيع أن يتصل بزملائه ويشترك معهم فى عملهم ولعبهم وسرورهم وحديثهم العذب وحل ما يعترضهم من مشكلات وهذا مفيد له من النواحى الخلقية والجسمية والعقلية ، لأن الاطفال المتقاربين فى السن يشعرون بالحرية فى أقوالهم وأفعالهم ويتعلم بعضهم منبعض ويترافقون ويتعارضون ···ويتعاونون ويتبارون · ويتناظرون ويتساجلون ويحاكى كل منهم الآخر · وفى ذلك كله تهذيب لاخلاقهم وتنشيط لهممهم وتمرين لعاداتهم واتساع لخبرتهم وتجاربهم وكسب لكثير من الآراء والافكار ·

وكان المربون من المسلمين يعلمون أن لدى الطفل ميلا طبيعيا لحب الثناء والظهور فيمدحونه على ما يبدو منه من قول حسن أو فعل جميل ويشجعونه على الاستمرار حتى يحافظ على منزلته لديهم ويجتهد فى اصلاح نفسه دائما · ولم يكثروا من اللوم والذم والتوبيخ حينما يظهر حبه لنفسه ، ورغبته الشديدة فى الأكل والشرب والملابس الجميلة لان الاكثار من التأنيب يميت قلب الطفل · وان حبالنفس والنهم منالصفات المقوتة اذا زادت على حدها بعثت الاثرة فى نفس الطفل · ولهذا نصحوا المربين بالتقليل من التوبيخ واللوم واستعمال الحكمة فى معاملته فان كلمة صغيرة من المدح والثناء والتشجيع وحسن الظن تصلحه وتهذبه وتقوم خلقه لانه يحب الثناء بفطرته ويكره اللوم وتثبيط الهمم واساءة الظن به ·

تكوين العادات الحسنة فى الاطفال منذ الصغر :

لقد نادى فلاسفة التربية الاسلامية بما ينادى به علماء النفس والتربية والاخلاق اليوم من تكوين العادات الحسنة فى الطفل منذ الصغر كأن نعوده التبكير فى النوم والتبكير فى الاستيقاظ ونشجعه على المشى

والحركة والرياضة البدنية وتعوده ألا يبصق فى مجلس ولا يمخط أو يتثاءب بحضرة غيره ولا يضع رجلا على رجل وألا يكذب ولا يحلف البتة لا صادقا ولا كاذبا وأن يعود طاعة أبويه ومعلميه ٠

وهى كلها عادات صحية واجتماعيـــة وخلقية يجب على المربين أن يبذلوا جهدهم فى بثها فى نفوس الناشئين من عهد الطفولة أى فى الوقت الذى يكون فيه المجموع العصبى للطفل أشد مرونة وأكثر اســـتعدادا للتكيف ٠ وقد قيل : من شب على شىء شاب عليه٠وكما يكون الطفل يكون الرجل ٠

وتتطلب التربية الاسلامية من المربى أن يتخذ الدروس وســـيلة لتكوين العادات الحسنة لدى المتعلم وتهذيب أخلاقه وتعويده فعل الخير واجتناب الشر وتربيته تربية كاملة ٠

٥ ــ لا يمكننا أن ندعى أن المدرسة الاسلامية وحدها تستطيع أن تقوم بتربية الطفل تربية خلقية كاملة فهناك شركاء يشتركون مع المدرسة ولهم أثر كبير فى تربية الطفل كالبيت والمجتمع ٠ فلكى نصل الى المثل الأسمى من التربية الخلقية للأبناء والبنات ٠٠ يجب أن يقوم البيت بواجبه نحو هذا النوع من التربية ويجب أن يكون المجتمع كاملا لايهدم مايؤسسه البيت أو تبنيه المدرسة ٠

ولا يمكننا أن ننسى أن علماء الاسلام قد عنوا بالتربية الخلقية كل العناية فعملوا على تقويم المعوج من الأخلاق بالقدوة الحسنة والتفاهم على انفراد وانتهاز الفرصة الملائمة للتهذيب وكانوا كالطبيب الذى لايعطى الدواء الا عند المرض وكالأم الحكيمة التى لا تقدم لابنها الغذاء الا فى وقته حينما يشعر بالجوع ٠

وان من يتعمق فى التربية الاسلامية يرى أن الغرض الاسمى منها تكوين الاخلاق وتربية الروح فكل درس يجب أن يكون درس أخلاق وكل معلم يجب أن يكون معلم أخلاق وكل مؤدب يجب أن يفكر فى الاخلاق الدينية قبل أى شىء آخر ٠

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن التربية الاسلامية كانت تتطلب من المربى دائما أن يكون المثل الاسمى للاخلاق كى تثمر العظة ويكون قدوة حسنة للمتعلمين فالخلق الكامل عماد التربية الاسلامية ٠ والغرض من الحياة هو الأخلاق الكاملة ٠

ولا نبالغ اذا قلنا ان المسلم الكامل هو الرجل المهـــذب الذى يطيع

الله ورسوله ويحب أخاه كما يحب نفسه ولا يؤذى جاره ولا يمس شعور غيره ولا يحقد على أحد ويجتهد فى أن يكون عادلا فى حكمه ، ومحال أن يتذكر السيئة وينسى الحسنة • وهو الصبور على تحمل المشاق الذى لا يبالى أبدا بالآلام • يستسلم للموت لأنه مقدر ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا • يرجع الى الحق ولا يتمادى فى الباطل • يحترم الدين ويعمل به • يوقر رؤساء الدين وينظر اليهم بعين كلها الاخلاص والاجلال •

المسلم الكامل هو رجل الحق والصدق والوفاء والاحسان والايثار سهل الخلق ، مخلص فى عمله حسن فى نيته • هو فاعل الخير ذو الهمة العالية والاخلاق السامية • يتحلى بكل فضيلة ، ويتجنب كل رذيلة •

وان الغرض الاساسى من التربية الاسلامية أن يحيا الانسان حياة طاهرة كلها اخلاص وطهارة ، ومن الممكن أن نلخص ذلك الغرض فى كلمة واحدة هى :

« **الفضيلة** » •

ومجمل القول قد وفق علماء التربية الاسلامية فى الانتفاع بالعوامل المؤثرة فى التربية الخلقية فانتفعوا بما لدى الاطفال من الميول والغرائز الفطرية فى تكوين أحسن العادات الخلقية والوجدانية والعقلية والصحية وانتفعوا بالطرق المباشرة وغير المباشرة فى التربية الخلقية ، وكل ما نأخذه عليهم هو أنهم كانوا يميلون الى الطرق المباشرة كالوعظ والارشاد وحفظ الاشعار ، أكثر من غيرها • ولا يستطيع أحد أن ينكر ما انتفعوا به من الميول الفطرية والايحاء والقدوة الحسنة والمحاكاة والمنافسة الشريفة ، وتكوين العادات الحسنة من الصغر فى الاطفال فنجحوا نجاحا باهرا فى التربية المثالية الخلقية •

تاديب الطفل فى نظر الغزالى :

يتفق الغزالى مع ابن سينا فى أن الوقاية خير من العلاج والواجب تعويد الطفل العادات الحميدة منذ الصغر حتى يعتادها فى الكبر يقول الغزالى (١) : « •• اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور

---

(١) انظر احياء علوم الدين • الغزالى ج ٣ ص ٦٢ •

وأوكدها . والصبى أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ... فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ، وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك .. وصيانته (١) بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء ... ومهما رأى فيه مخايل التمييز « فانه » ينبغى أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فانه اذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الافعال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحى من شىء دون شىء ، وهذه هداية من الله تعالى اليه وبشارة تدل على الاخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبى المستحى لا ينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه ... وان الصبى اذا أهمل فى ابتداء نشأته خرج فى الاغلب ردىء الأخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذا فضول وضحك وكيد ومجانة ، وانما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشغل فى المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ... ثم مهما ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود فانه ينبغى أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح ويمدح بين أظهر الناس . فان خالف ذلك فى بعض الاحوال مرة واحدة ينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ... ولاسيما اذا ستره الصبى واجتهد فى اخفائه... وان عاد ثانية ينبغى أن يعاتب سرا ... ويقال له اياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا ... فتفتضح بين الناس .

ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين فانه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه الا أحيانا والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح.. ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والده .. بل يعود التواضع ، واكرام كل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم ... ويعلم أن الرفعة فى الاعطاء لا فى الأخذ وأن الاخذ لؤم وخسة ودناءة وان كان من أولاد الفقراء يعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وان ذلك من دأب الكلب ، فانه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها ...

---

(١) يقصد صيانة الاب لابنه .

وينبغى أن يعود ألا يبصق فى مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولايعمد رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل ويعلم كيفيةالجلوس ويمنع كثرة الكلام ، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة ... ويمنع الحلف رأسا صادقا كان أو كاذبا حتى لايعتاد ذلك فى الصغر .

ويمنع أن يبتدىء بالكلام ويعود ألا يتكلم الا جوابا ويقدر السؤال وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك ، فان ذلك يسرى لا محالة من قرناء السوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء ...

وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبى ومهما بلغ سن التمييز ينبغى ألا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان .

فأوائل الأمور هى التى ينبغى أن تراعى فان الصبى بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وانما أبواه يميلان الى أحد الجانبين قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

وانى أقول صراحة من غير تعصب للغزالى بأن هذه الآراء كلها ثمينة فى عالم التربية الخلقية الحديثة اليوم ، فهو ينصح بابعاد الطفل عن قرناء السوء ويقول ان الوقاية خير من العلاج والتربية والتهذيب من أهم الأمور وأوكدها . ومن الذى يشك فى أن الطفل أمانة عند والديه وأثمن شيء فى الحياة ؟ ومن الواجب المحافظة على هذه الامانة . وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة قابل للخير والشر ، فان عود الخير وعلمه من الصغر نشأ عليه واعتاده فى الكبر وكان سعيدا فى الدنيا والآخرة . وان عود الشر وهو صغير وأهمل بدون تربية وتهذيب كما تهمل البهائم شقى وهلك فى حياته . ولصيانة الطفل والمحافظة عليه يجب تأديبه وتهذيبه وتعويده الاخلاق الكريمة وحفظه من القرناء الذين ساءت أخلاقهم وأهملت تربيتهم . وينبغى أن يراقب مراقبة حسنة مهما يكن ذكيا مفكرا يستطيع التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح . ومما يدل على تمييزه وتفكيره ظهور الحياء على وجهه والاحتشام والاستحياء وترك بعض الافعال لقبحها . ويرى الغزالى أن الحياء نعمة من الله عليه وهدية اليه تدل

على اعتدال خلقه وصفاء قلبه وبشارة تبشر بكمال عقله عند بلوغه • فالصبى المستحى ينبغى ألا يهمل بل يستعان على تأديبه وتهذيبه بحيائه وتمييزه وحسن تفكيره •

وان أهم مرحلة فى التربيـــة فى اعتقادنا هى مرحلة الطفولة فاذا أهمل الطفل فى بدء حيـــاته خرج فى الأغلب فاســـد الاخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا فضوليا ، يميل الى المؤامرات والكيد والاساءة لغيره • ومن السهل أن يحفظ عن جميع هذه الصفات الذميمة بحسن التربية والتأديب وشغل أوقات فراغه ، وتكليفه فى المكتب تعلم القرآن الـــكريم ودراســـة حياة العظماء وحكايات الصالحين والأبرار وأحوالهم ليقتدى بها ويحذو حذوها وينغرس فى قلبه حب الأتقياء والصالحين • وفى الكتاب والبيت يجب أن يحفظ من الأشعار التى فيهـــا ذكر العشق وأصحابه كى لا يتأثر بها ويضيع وقته فى عبث ومجون • واذا ظهر من الطفل خلق جميل ، وفعل حميد وجب أن يكرم ويكافأ عليه ويشجع بالمدح عليه بين الناس ليفرح ويدخل السرور فى نفسه • واذا أخطأ مرة واحدة فالأفضل أن نتغافل عنه ، ونتجاهل هذا الخطأ ولا نهتك ستره ، ولا نكاشفه ولا نتحدث معه فى هذا الامر وخاصة اذا ستره الصبى واجتهد فى اخفائه • وان الغزالى حكيم كل الحكمة فى قوله : « وان عاد ثانية ينبغى أن يعاتب سرا ويحذر من العـــودة الى خطئه » وحكيم أيضا فى نصيحته للمربى بعدم الاكثار من عتاب الطفل كى يكون للعتاب أثره وارشاده للأب بقلة توبيخ ابنه • ولم ينس الغزالى أثر الرياضة البدنية كالمشى والحركة فى تربية الطفل ونشاطه ونصحه له بالتواضع وعدم الافتخار على الاقران والاعطاء لا الاخذ • ولم يترك الغزالى شيئا من الآداب العامة كآداب الجلوس والكلام والاستماع ومعاملة غيره من كبار السن واطاعة والديه ومربيه والمواظبة على الصلاة وأمره بالصوم أياما فى رمضان حتى يعتاد الصلاة والصوم فى الكبر •

وخير نصيحة نصح بها الغزالى فى تربية الطفل وتهذيبه العناية بتأديبه فى المرحلة الاولى من حياته فكما يكون الطفل يكون الرجل • فاذا عنينا بتربيته وهو صغير كان مهذبا وهو كبير • ويمكننا أن نقول بحق ان ما قاله الغزالى هنا خير دستور لتربية الطفل تربية خلقية مثالية كاملة وبعبارة أخرى أحسن دستور للتربية الاسلامية •

واننا نأسف أشـــد الأسف اذا قلنـــا ان التربية الخلقية الكاملة وبعبارة أخرى التربية الاسلامية مهملة كل الاهمال فى البيت والمدرسة

والمجتمع فى الوقت الذى نقول فيه ان سعادة الامم لا تتوقف على كثرة دخلها أو جمال مبانيها ولكنها تتوقف على عدد المهـــذبين والمهذبات من أبنائها وبناتها فبكمال الاخلاق تكون سعادتها وقوتها ونهضتها ٠

ولا يمكننا أن ندعى أن المدرسة وحدها تستطيع أن تقوم بتربية النشء تربيـــة اسلامية خلقية كاملة ٠ فهنـاك المنزل والبيئة الاجتماعية يشتركان مع المدرسة ولهما أثر كبير فى التربية الخلقية ٠ فلكى نصل الى الخلق الاسلامى الكامل يجب أن يقوم البيت بواجبه وتؤدى المدرسة واجبها ، ويكون المجتمع كاملا لا يهدم ما يؤسسه البيت أو تبنيه المدرسة حتى نستطيع أن نؤدى رسالتنا الخلقية فى العهد الجديد ٠

وان التربية الاسلامية توجب علينا أن نذكر دائما أننا لسنا فى حاجة الى العلم وحسب ، ولكننا فى حاجة الى كثير من الأخلاق الفاضلة فالعلم كثير والكتب لا نهاية لها ولكن الأخلاق النبيلة اليوم نادرة وهى التى تنـادى بها التربية الإسلامية وتطالب ببثها فى نفوس النشء فى كل نوع من أنـــواع التعليم حتى نستطيع أن نؤدى رسالتنا وواجبنا خير أداء ٠

واننا لا نقصد بالتربية الخلقية أن نلقن أبناءنا وبناتنا الفضـائل ومحاسنها والرذائل ومساويها بل نريد التفكير فى تهذيب أخلاقهم حينما تبدو الفرصة عرضا فى أى مكان يحلون به ٠ نريد العمل على تقويم المعوج من الأخلاق بالقدوة الحســـنة والمثـل الكامل ، والتفاهم برفق والتكلم على انفراد فيكون مثل المربى الطبيب الذى لا يعطى الدواء الا عند المرض والام الحكيمة التى لا تقدم لابنها الغذاء الا فى وقته حينما يشعر بالجوع ٠

ويجب أن يضع الآباء والامهات والمعلمون والمعلمات التربية الخلقية والروحية نصب أعينهم دائمـــا ويفكروا فى التربية الـــكاملة والاخلاق الاسلامية قبل أى شىء آخر ٠ ولكى تثمر العظة يجب أن تكون قدوة حسنة ومثلا عاليا لاولادنا لان فاقد الشىء لا يعطيه ٠ وأعتقد مخلصا أن أكبر أمر يجب أن نفكر فيه فى الوقت الحاضر هو ايجاد رجال مهذبين وســـيدات مهـذبات وتكوين شـــباب مهذب مثقف كريم الاخلاق ونصل بالمجتمع الى الكمال الخلقى الذى نرجوه وننشده فليست مشكلاتنا هى الجهل والفقر والمرض وحسب ولـــكن مشكلة المشـــكلات هى الاخلاق

وتهذيبها . بين أطفال اليوم ورجال الغد ، من الطفل فى المهد الى الطالب فى الجامعة .

فاذا أردنا أن ننهض ونعيد مجدنا الاسلامى القديم وعظمتنا التليدة فعلينا أن نفكر فى العلم ونشره والتربية وتعميمها والاخلاق وتهذيبها فالامم لا ترقى بالمال أو الحصون ولكنها ترقى بالعلم والاخلاق .

وليس بعامر بنيان قوم اذا أخلاقهم كانت خرابا

فبالعلم والتربية الخلقية نستطيع أن نعيـــــد مجد المسلمين فى عصورهم الذهبية والحضارة الاسلامية والعربية ونقود العالم فى الحاضر والمستقبل كما كنا نقوده فى الماضى .

الفصل العاشر

الاسلام وتعليم المرأة

لقد فرض طلب العلم على المرأة كما فرض على الرجال فى الاسلام فقد سوى الدين الاسـلامى بين المرأة والرجل فى الأمور الروحية والواجبات الدينية ولم يفرق بينهما فى العلم والتعلم قال الرسـول الكريم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » من غير تفرقة بينهما فى طلب العلم • فالعلم مقدس فى الاسلام وطلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة •

وقد كان للمرأة العربية فى الجاهليـة الحق فى التعلم وكان بين النساء كاتبات وشاعرات • وحينما ظهر الاسـلام بدأت الحياة العقليـة تنشط وتحيا لدى العرب وكسبت المرأة حقوقا اجتماعية لم تكن لهـا قبل الاسلام فنهض التعليم بين النسـاء • ووضح الكتاب والمؤرخون أسماء المسلمات المتعلمات اللاتى كن يعرفن القراءة والكتابة فى صدر الاسلام • فأثبت البلاذرى أن السيدة حفصة زوج النبى كانت تقرأ وتكتب وعائشة بنت سعد كانت تعرف القراءة والكتابة ، والسـيدة عائشة بنت أبى بكر كانت تقرأ المصحف وتعلم الكثير • قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » أى البيضاء وقد قال فى شأنها عروة بن الزبير : « ما رأيت أحدا أعلم بفقـه ولا بطب ولا بشعر من عائشة » وقد روت عن النبى صلى الله عليه وسـلم ألف حديث •

ومن النساء المسلمات النابغات : الخنساء وهى شاعرة عرفت بجودة الشعر والوطنية الصادقة والوفاء والتضحية والسـيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنه ، وهى شاعرة أديبة عالمة بضروب الايقاع ، وسيدة الناقدين وكان الشعراء يفدون على دارها من كل حدب وصوب للمباراة بالأشعار فى حضرتها • وقد خطت عائشة بنت طلحة خطوات السيدة سكينة فاشتهرت بنقد الشعر والغناء واجتمع لديها الأدباء والشعراء والرواة للمنافسة فى الأدب والشعر والرواية •

وان الكتب العربية مملوءة بأسماء المسلمات النابغات فى العلوم الدينية والأدبية والطبية ، وأسماء الجوارى الشـهيرات فى الآداب والفنون •

وقد اشتهرت المرأة المسلمة بالصدق فى عملها والأمانة والدقة فى

روايتها وأخذ أفاضل العلماء برواياتهـــا • وقد قال الحافظ الذهبى ـ وهو محدث عظيم ـ (وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها) ومن النساء الشهيرات فى عالم الحديث : كريمة المروزية وسيدة الوزراء وكانت من اهم راويات الأحاديث التى جمعهـــا البخـــارى • وقد ذكر الحافظ بن عساكر ـ وهو أحد رواة الحديث ـ أن عدد شيوخه وأساتذته من النساء كان بضعا وثمانين أستاذة •

وقد سرقت مرة امرأة من قريش منذوات الحسب والنسب فعوقبت عقاب من يسرق فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فحاول أحد المسلمين أن يشفع لها فقال له النبى : صلى الله عليه وسلم : « أتشـــفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : يأيها الناس انما أضل من قبلكم انهم اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد • وأيم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » • ففى الاسلام مساواة بين الرجل والمرأة فى الثواب والعقاب ولا يتميز عليها الا فى انه مطالب بالانفاق عليها ورعايتها والدفاع عنها • قال تعالى فى موقف المرأة « ولهن مثل الذين عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » وحينما بدأ النبى صلى الله عليه وسلم ينشر قواعد الاسلام ومبادئه نشرها بين الرجال والنساء من غير تفرقة •

وان من يدرس هذا الموضوع وهو : تعليم المرأة فى الاسلام يجد رأيين متناقضين فيه :

الأول : رأى من يقول بتعليم المرأة القرآن الكريم والدين الاسلامى ليس غير وينهى عن تعليمها الكتابة والشعر • وقد بالغ أنصار هذا الرأى وادعوا ان المرأة ناقصة العقل والدين وان نقصها لا يشجع على تعليمها العلوم • وفى هذا المعنى يقول شاعرهم :

النســـاء ناقصـــات عقل ودين
ما رأينـــا لهن رأيا ســـنيا

ولأجل الـــكمال لم يجعل الله
تعـــالى من النســـاء نبيـــا

ومنهم القابسى الفقيه القيروانى (١) فهو لا يرى بأسا من تعليم المرأة القرآن والدين لا « الترسل والشعر ••• وانما تتعلم ما يرجى له سلامة

---

(١) صاحب كتاب «الفضيلة لاحوال المتعلمين» .

ويؤمن عليها من فتنته وسلامتها من تعلم الخط أنجى لها » وهو رأى يسىء الظن بالمرأة ولا تقول به أكثرية المسلمين ٠

الثانى : رأى من ينادى بتعليم المرأة من المسلمين وهو رأى سديد يستمد قوة عظيمة من اسناده الى أحاديث نبوية تشجع على تعليم المرأة منها الحديث الذى ذكرناه فى بدء الموضوع وهو : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وقوله صلى الله عليه وسلم : « وأيما رجل كانت عنده وليدة (١) فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران »

وقد حض النبى على تعليم أزواجه الكتابة فقال للشفاء العدوية ـ وقد كانت تجيد القراءة والكتابة فى الجاهلية قبل الاسلام ـ « ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة ؟ »

وقد انتصر الرأى القائل بتعليم المرأة المسلمة القراءة والكتابة حتى وصلت المرأة الى أسمى درجات العلم والثقافة ونالت أكبر قسط من التربية والتعليم فى العصور الذهبية للاسلام ، فكان من النساء المسلمات الكاتبة والشاعرة والطبيبة والمعلمة والقاضية ولم يستطع المترددون الوقوف فى سبيل تعليمها الا فى البلاد الضعيفة بسبب الاحتلال الأجنبى ففى تلك البلاد حرمت المرأة العلم والنور وحجبت عن الأعين وتركت فى دارها جاهلة لا تقرأ ولا تكتب ٠

وفى كتب الأدب العربى والتاريخ الاسلامى عدد كبير من النساء المسلمات الشهيرات نذكر منهن :

١ ـ علية بنت المهدى : وهى شاعرة معروفة بالنبوغ الشعرى والمعانى الرقيقة والعبارة الجزلة ٠

٢ ـ عائشة بنت أحمد بن قادم : وقد نشأت بقرطبة ولم يكن فى زمانها فى الاندلس من يماثلها فى فهمها وعلمها وأدبها وشعرها وفصاحتها وعفتها ٠ وكانت تجيد الخط وتكتب المصاحف وتجمع الكتب الثمينة فى خزانتها ودارها وقد توفيت سنة ٤٠٠ هـ ٠

٣ ـ ولادة بنت الخليفة المستكفى بالله : وهى أديبة شاعرة ناظرت الأدباء والشعراء وكان قصرها منتدى متسعا يأوى اليه رجال الادب والشعر والوزراء والعلماء والقضاة ٠

---

(١) امة ٠

٤ ـ لبنى : وهى الكاتبة فى ديوان الخليفة الحكم بن عبد الرحمن المجيدة للكتابة والشاعرة العالمة بالنحو ، المتينة فى الحساب والعلم . وقد توفيت سنة ٣٩٢ هـ .

٥ ـ فضل : وهى جارية تعلمت فنون الأدب والشعر والغناء وقد اشتريت وأهديت الى الخليفة المتوكل وعرفت بالذكاء وحضور البديهة والنبوغ فى الشعر الغنائى الذى يحتاج الى رقة الطبع والعاطفة وقوة التأثير . وقد ظهرت فى عصر تميز بفحول الشعراء كالبحترى وابن الرومى وعلى بن الجهم فلم تقصر عن هؤلاء جميعا .

٦ ـ وقد أشار ابن أبى أصيبعه فى كتابه « طبقات الأطباء » الى طبيبتين مسلمتين درستا الطب واشتغلتا به . منهما الطبيبة زينب طبيبة بنى أود التى عرفت بعلاج أمراض العيون . وكانت النساء المسلمات فى الحروب الاسلامية يقمن بمداواة الجرحى وخدمتهم ومعاونتهم كما تعمل سيدات الهلال الأحمر والصليب الأحمر فى الحروب اليوم .

روى أن أمية بنت قيس الغفارية قالت : أتيت رسول الله فى نسوة من بنى غفار وهو سائر الى غزوة خيبر فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا فقال : على بركة الله .

وتقول الربيع بنت معوذ : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسقى القوم ونخدمهم ونداوى الجرحى ونرد القتلى والجرحى الى المدينة .

ومن الطبيبات المسلمات أيضا الطبيبة أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى وقد كانت طبيبة مبرزة شهيرة فى الطب كثيرة الاطلاع وأجادت علوما كثيرة مع الطب .

وأخت الحفيد بن زهر وابنتها كانتا عالمتين بالطب والمداواة ولهما خبرة كبيرة بعلاج أمراض النساء (١) .

٧ ـ وفى العصر العباسى فى عهد الخليفة المقتدر أشارت كتب التاريخ الى امرأة مسلمة تولت القضاء واطمأن الناس الى عدالتها فى الحكم واعترفوا بفضلها ومقدرتها القضائية .

ومع أن الميدان السياسى صعب وليس بسهل نجد بين المسلمات

---

(١) « طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة » ج ٢ صفحة ٧٠ .

نساء اشتغلن بالسياسة وناصرن طائفة على أخرى معتمدات على فصاحتهن وعاطفتهن المؤثرة وبديهتهن الحاضرة ومقدرتهن الخطابية الملتهبة كما حدث وقت القتال بين على ومعاوية فقد ناصرت نساء كثيرات عليا مثل هند بنت يزيد الانصارية والزرقاء بنت عدى بن قيس وأم الخير البارقية وعكرشة بنت الاطروش وقد أعجب معاوية بن أبى سفيان بالنساء اللاتى خاصمنه وخطبن ضده . فبعث وطلب بعض الخطيبات منهن لمناقشتهن ومساجلتهن ومعرفة ما عسى أن يقلنه بعد أن قتل على وتولى معاوية الخلافة (١) وفى العصور التى تلت عصر معاوية لعبت الخيزران وشجرة الدر دورا كبيرا فى سياسة الدولة الاسلامية .

ومما سبق يتبين ان المرأة المسلمة لم تكتف بالدراسة وتحصيل العلم ولكنها انتفعت بعلمها وذكائها وذوقها الأدبى ونشاطها العقلى فى النواحى التى اشتغلت بها كالأدب والسياسة والاجتماع والطب والقضاء والتدريس ولكن عدد المشتغلات بمهنة التعليم من المسلمات كان أكثر ممن اشتغلن بالمهن الأخرى كما هو حادث الآن . وكان العلماء من الرجال يقومون بالتدريس للنساء وكانت النساء يقمن بالتدريس للرجال .

وقد اعترف بعض العلماء والأدباء بفضل النساء المسلمات فقد ذكر ابن خلكان أن أم المؤيد زينب بنت الشعرى كانت عالمة ، أخذت العلم عن كبار العلماء وروته عنهم ومنحوها اجازة علمية أدبية وقال : انها منحته اجازة كتبتها له فى سنة ٦١٠ هـ .

وقد قيل : ان طرفة بنت عبد العزيز بن موسى قد تلقت العلم عن العلماء المشهورين فى عصرها بالأندلس وأخذت عنهم كثيرا من كتبهم . وكان من النساء مدرسات منقطعات لتدريس العلوم الدينية للنساء وللعبادة . هذا وصف موجز لما نالته المرأة المسلمة من التعليم العالى وهذا حظها منه فى وقت حاول فيه دعاة التردد فرض قيود عليها فى التعلم . ولم يقل نصيبها من التعليم الأولى عن نصيبها من التعليم العالى . ولكننا لا نستطيع أن ننكر أو نتناسى ان تعليم الأبناء كان أسهل من تعليم البنات ، وان تعليم البنات كان فيه شىء من الصعوبة وان عدد المتعلمين من المسلمين أكثر من عدد المتعلمات من المسلمات . والسبب فى القلة هو ما كان يوضع من العقبات فى سبيل تعليم النساء تعليما مدنيا وفى سبيل تعليمهن الخط .. والكتابة . وقد رأى بعض

---

(١) «صبح الاعشى للقلقشندى» ج ١ ص ٢٤٨ .

المتشـــددين ألا يعلم البنون والبنات فى مكتب واحد أو مدرسة واحدة خوفا من اثر الاختلاط ومع هذا كان الذكور يتعلمون أخيرا مع الاناث فى كتاب واحد وخاصة فى البلاد الريفية والنائية حتى وقتنا هذا وكانت البنات يتعلمن فى بيوتهن فى البدء على أيدى بعض المؤدبين أو الأقارب ٠

والحق ان الاســـلام قد اعترف بحق البنات فى التعلم الى أقصى حدود العلم ــ ان كان للعلم نهاية ــ فتعلمت التعليم الابتدائى واستمرت فى التعلم وطلب العلم حتى وصلت الى التعليم العالى فدرست المرأة المسلمة الأدب والدين والطب واشتغلت بالقضاء واشتركت فى الشئون السياسية ، وكان من النساء٠ الأديبات والكاتبات والشاعرات والخطيبات والفقيهات والطبيبات والقاضيات والسياسيات ٠ وبلغت كثيرات منهن منزلة علمية رفيعة فكان منهن الاستاذات والمدرسات للامام الشـــافعى وابن خلكان وأبى حيان وجميعهم من الفقهاء والعلماء والأدباء المشهورين ويكفيهن هذا فخرا بين النساء فى جميع الأديان ٠ وهذا أكبر دليل على ما تمتاز به التربية الاســـلامية من الحرية فى التعلم والديمقراطية فى التعليم واليقظة الروحية فى الاسلام ٠

موازنة المراة المسلمة والمراة المسيحية فى القرون الوسطى :

اذا قلبنا صفحات التاريخ فى القرون الوســطى وجدنا أن المرأة الأوربية المســـيحية كانت غارقة فى بحار الجهل وأن الاغريق القدماء ــ ما عدا الاسبرطيين وأفلاطون ــ مع ما كان لهم من حضارة ومدنية ــ عدوا المرأة جزءا من المتاع الذى يلهو به الرجل ويتمتع به وبخلوا عليها بحقها فى التعلم وفى المساواة بالرجل من الناحية الاجتماعية ، وألفينا أن الألمان كانوا يقـــولون : ان خزانة الملابس هى مكتبة المرأة ٠ وأن الفرنسيين كانوا يعتقدون أن المرأة يجب أن تكون بين أربعة جدران ورأينا ان المرأة المسلمة قد بلغت فى العصور الوســـطى منزلة سامية من الناحية العلمية والنهضـــة العقلية والســـمو الروحى واشتركت فى الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية للمجتمع الاسلامى فى عصـــوره الذهبية ووصلت الى درجة كبيرة من الثقافة والعلم كانت تحسد عليها من هذا كله يتضح أنه لا صحة للرأى المنتشر بين المتعصبين من الغربيين بأن جهل المرأة المسلمة راجع الى أسباب دينية وتقاليد اسلامية فالاسلام دين علم ونور لا دين جهل وظلمة وقد أوجب طلب العلم على كل مســـلم ومسلمة ٠ ولكن روح التعصب هو الذى نشر هـــذه الفكرة الخاطئة عن الاسلام ٠ وان من يقلب الصفحات الماضية للمرأة المسلمة سيجد فيهـــا

صورا للعظمة الروحيـــة والعناية بالقيم المعنوية التى يرمز اليها تعليم المرأة فى عصر النهضة الاسلامية • وللنساء المسلمات ماض مجيد تستطيع المرأة اليوم أن تفخر به وتبنى فوقه لنفسها مجدا علميا وروحيا آخر •

والحق اننا لســـنا فى حاجة الى ذكر الفوائد التى تعود على الأمة الاسلامية من تعليم البنات فقد مضى الوقت الذى كان يعد فيه تعليم المرأة المسلمة عارا واننا ننتظر من كل أب مسلم أن يقوم بتعليم أبنائه وبناته من غير تفرقه لأننا اذا قمنا بتعليم الابن فالتعليم لا يتعدى فردا واحدا ولكننا اذا علمنا البنت فكأننا قمنا بتعليم أسرة مسلمة وتثقيفها لأن بنت اليوم أم فى المستقبل تقوم بتربية أبنائها وبناتها • ولو القينا نظرة واحدة الى التاريخ لوجدنا للأمهات فضلا عظيما فى تكوين العظماء من الأبناء •

وأعتقد انه قد مضى الوقت الذى كانت فيه المرأة المسلمة منكودة الحظ مهضومة الحق مهملة فى التعليم • ولا ينكر أحد من المســـلمين اليوم فضل تعليم البنت • وانى أقصد بالتعليم التعليم الذى يؤدى الى الفضيلة والرقى والكمال فى كل ناحية من نواحى الحياة • وليس هناك مضرة ولا منقصة ولا عار فى تعليم الفتاة المسلمة التعليم الذى يمكنهـا من كسب عيشها والاعتماد على نفسها اذا ابتليت بيوم أسود أو أصيبت بفقر أو فقد زوج أو أب •

امن العيب أن تجعل المرأة حية بالعلم قادرة على العمل ؟ هل العار فى العمل والقدرة على كسب العيش من طريق شريف أو فى الاستجداء من الناس والالتجاء الى وسائل غير شريفة ؟ ماذا تستطيع المرأة المسلمة أن تفعل اذا تركت وحولها خمسة أطفال لا دخل لهم ولا معين ؟ فيأيها المسلمون علموا بناتكم ولا تعطلوا نصف الأمة الاسلامية فمحال أن ترقى مادام نصفها الذى يقـــوم بالتربية المنزلية متعطلا جاهلا لا يعرف عن الحياة شيئا • ساعدوها بالتربية الكاملة ورقوها بالعلم والتعليم واحترموها فما هى الا مخلوق مثلكم • ولا تتركوها جاهلة مهملة • وفكروا فى تربية بناتكم كما تفكرون فى تربية أبنائكم •

ان المرأة ضعيفة القوة فقووها بالعلم وحسن الخلق ولا تقبروها بالجهل وهى حية • افتحوا سبل التعليم أمامهـــا فان المرأة اذا تعلمت استطاعت أن تقوم بما يقوم به الرجل ، استطاعت أن تكون معلمة واستاذة وطبيبة للنساء والأطفال والعيون والامراض الباطنية والأسنان والأنف والأذن والحنجرة وممرضة للمرضى ومربية وكاتبة ومؤلفة وباحثة وعالمة

ومهندسة معمارية ومدافعة عن حقوق المرأة · واستيقظوا من سباتكم ان كنتم نائمين · ورحم الله حافظ ابراهيم اذ قال :

الأم مدرســـة اذا أعددتهـــا
أعددت شـعبا طيب الاعراق

ورحم الله شوقي حيث قال :

واذا النســـاء نشـــأن فى أمية
رضـع الرجال جهـالة وخمولا
ليس اليتيم من انتهى أبواه من
هم الحيـاة وخلفـــاه ذليلا
ان اليتيم هو الذى تلقى له
أما تخلت أو أبا مشـــغولا

وليس الذكاء مقصورا على الأبناء أو خاصا بالبنات بل هو شركة بين النوعين ومن النقص أن نوجه العناية الى نوع ويهمل الآخر · ومن الحكمة أن ننتفع بذكاء البنات فى دائرة حياتهن كما ننتفع بذكاء البنين حتى نجد شعبا مسلما كاملا جمع بين الجنسين ينهض ببلاده الاسلامية ويعيد اليها تراثها الخالد فى عصورها الذهبية ·

وقد أباحت الشريعة الاسلامية للمرأة أن تتجر ومنحتها الحق فى التجارة والحق فى التملك والبيع والشراء والتصرف فيما تملك من غير رجوع الى زوجها · وجعل لها الحق فى أن ترث وهى زوجة · وترث وهى أم أو أخت · فالاسلام أعطى المرأة حقها فى التعليم · وحقها فى التملك وحقها فى الميراث · وهو دين العلم والديموقراطية والعدالة الاجتماعية ·

الفصل الحادى عشر

المعلم والتلميذ فى الاسلام

لقد عنى فلاسفة الاسلام بالكتابة عن العالم والمتعلم أو المعلم والتلميذ وما لهما من حقوق وما عليهما من واجبات وكتبوا كثيرا عن الصفات التى يجب أن يتحلى بها كل منهما · فقد كتب النمرى القرطبى فى كتابه (جامع بيان العلم وفضله) عن « آداب العالم والمتعلم » وكذلك فعل الغزالى فى كتابيه : (فاتحة العلوم) و (احياء علوم الدين) وقد خص المعلم بالتقديس والتبجيل وجعله فى منزلة تلى منزلة الأنبياء · قال الرسول الكريم (ان مداد العلماء خير من دماء الشهداء) « فالعالم العامل خير من المتعبد الذى يصوم النهار ويقضى الليل فى التعبد والصلاة· وقد وصف الغزالى منزلة العلم والعلماء فى قوله (١) (فمن علم وعمل بما علم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماء فكأنه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها · وكالمسك الذى يطيب عبيره وهو طيب · ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه) وقد اعترف الشاعر أحمد شوقى بفضل المعلم فقال :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

فهو الأب الروحى للمتعلم وهو الذى يقوم بتغذية النفس بالعلم وتهذيب الأخلاق وتقويمها فتبجيله تبجيل لأبنائنا وتقديره تقدير لهم · به يحيون وبه ينهضون اذا أدى رسالته خير أداء ·

وقد وصف أبو الدرداء المعلم والمتعلم بانهما زميلان فى الخير ولا خير فيما عداهما ·

وفى العصور الوسطى كان الأستاذ فى معاهد الغرب يعامل بكل قسوة وشدة فكان يحلف لعميد الكلية بأداء فروض الطاعة له وتنفيذ النظام الذى تفرضه الجامعة عليه ويعد غائبا ويعرض لغرامة محددة اذا لم يحضر محاضرته خمسة من الطلبة على الأقل وكان الطالب يكلف التبليغ عن أستاذه اذا غاب عن درسه بغير اذن · فى حين أن الأستاذ فى المعاهد الاسلامية كان يتمتع فى ذلك الوقت بكل رعاية وتقديس ويعامل بكل اجلال وتقدير وكانت له مكانة سامية وحرية مطلقة فى

---

(١) «احياء علوم الدين» للغزالى ج ١ ص ٥٢ ·

التدريس واختيار المادة والوقت الذى يدرس فيه والعدد الذى يؤديه من المحاضرات ٠

الصفات التى يجب ان تتوافر فى المعلم فى التربية الاسلامية :

١ ــ الزهد والتعليم ابتغاء مرضاة الله ٠

كان للمعلم منزلة سامية مقدسة واعيه واجبات تلائم مكانته فقد كان زاهدا كل الزهد ٠ يقوم بالتعليم ابتغاء مرضاة الله ولا ينتظر أجرا أو راتبا أو مكافأة مالية ولا يريد من مهنة التعليم سوى ارضاء الله ونشر العلم والتعليم ٠ وكان الأساتذة يستعينون على المعيشة والحياة بنسخ الكتب وبيعها لمن يريدها ويكسبون عيشهم بهذه الوسيلة وقد استمر علماء المسلمين عدة قرون وهم لا يقبلون أى أجر على تدريسهم ٠ ولكن بمضى الزمن أنشئت المدارس وحددت المرتبات للمعلمين فعارض هذا النظام كثير من العلماء وتقدوه ووقفوا ضده لزهدهم وورعهم ٠ وفى اعتقادنا أن قبول المرتبات لا يتعارض مع ارضاء الله والزهد فى الدنيا لأن العالم ــ مهما يكن زاهدا متقشفا ــ يحتاج الى شىء من المال يستعين به على مطالب الحياة ٠

٢ ــ طهارة المعلم :

يجب أن يكون المعلم طاهر الجسم والجوارح بعيدا عن الذنوب والآثام طاهر الروح بريئا من الكبر والرياء والحسد والعداوة والبغضاء وغيرها من الصفات الذميمة قال الرسول الكريم : (هلاك أمتى رجلان : عالم فاجر وعابد جاهل ، وخير الخيار خيار العلماء وشر الأشرار الجهلاء)

٣ ــ الاخلاص فى العمل :

ان اخلاص المدرس فى عمله أكبر وسيلة لنجاحه فى مهنتهونجاح تلاميذه ومن الاخلاص أن يعمل بما يقول وتتفق أعماله مع أقواله ولا يخجل من قولة : لا أدرى اذا كان لا يدرى فالعالم حقا هو الذى يشعر على الدوام بحاجته الى الاستزاده من العلم ويضع نفسه موضع تلاميذه فى البحث عن الحقيقة ويخلص لهم ويحافظ على أوقاتهم ٠ ولا مانع يمنع التعلم منهم لأنه يتحلى بالتواضع فى التربية الاسلامية ٠ ويكون حكيما حازما فيما يقول وما يفعل ٠ يلين فى غير ضعف ويشتد فى غير عنف ٠

٤ ـ الحلم :

يجب على المدرس أن يكون حليما مع تلاميذه يستطيع أن يضبط نفسه ويكظم غيظه ويكون رحب الصدر كثير الصـــبر لا يغضب لأتفه الأسباب ٠

٥ ـ الهيبة والوقار :

ليكون العـــالم كاملا يجب أن يتصف بالهيبة والوقار ويكون ذا كرامة يربأ بنفسه عن الدنايا ويستنكف من القبيح ولا يصخب ولا يغلو حتى يكون مرفوع الرأس وموضع التبجيل والاحترام ٠

٦ ـ يجب أن يكون المدرس أبا قبل أن يكون مدرسا ٠

يجب أن يحب تلاميذه محبته لأبنائه ويفكر فيهم كما يفكر فى أولاده ٠ وعلى هذ المبدأ الاسلامى تبنى التربية الحديثة اليوم ٠ وينبغى أن يكون التلميذ أحب الى المعلم من الولد الصـــلبى ٠ وان الأب الذى يضع أبناءه فى قلبه أب عادى جدا ولكن الأب الذى يضع أبناء غيره فى قلبه يعد من الآباء الطاهرين المثاليين ٠ وان أولى التلاميذ بالعطف والشفقة أولئك الفقراء الذين يأتون من منازل حكم عليها بالشقاء ولا يحبـــون أحدا لأنهم لم يشعروا بحب أحد ٠ وهنا الفرصة أمام المدرس فى أن يعمل للوصول الى قلوب هؤلاء البائسين لينقذ حياتهم وينجى أرواحهم من الموت والشقاء ويجتهد فى مساعدتهم وتسهيل الأمور فى سبيلهم بحيث يكون ابا شفيقا يعطف عليهم ويقوى ضـــعيفهم ويشاركهم فى شعورهم ٠

٧ ـ يجب أن يكون عالما بطبـــائع الأطفال وميـــولهم وعاداتهم وأذواقهم وتفكيرهم كى لا يضل فى تعليمهم ٠ وهذا ما ينادى به علماء التربية فى القرن العشرين ففي التربية الاسلامية كان المدرس مطالبا بالعلم باستعدادات الأطفال وطبائعهم ومراعاتها فى أثناء التدريس لهم كى يختار لهم الموضوعات الملائمة التى فى مستواهم العقلى ، ولا يرقيهم من الجلى الى الدقيق ، ومن الظاهر الى الخفى دفعة وفى أول مرتبة ، بل على قدر الاستعداد ، فلا ينتقل من السهل الى الصعب ، ومن الواضح الى الخفى مرة واحدة ، بل يتدرج معهم على قدر استعدادهم وادراكهم وفهمهم ٠

٨ ـ يجب أن يتمكن المدرس من مادته ويستمر فى البحث والاطلاع حتى لا يصير تعليمه سطحيا لا يســـــمن ولا يغنى من جوع ٠ وقد كان

للمعلم منزلة كبيرة فى المرحلة العالية من التعليم وكان موضع ثقة وتقدير لدى الطلاب والآباء ويختلف عن المعلم فى المرحلة الأولى كثيرا ولا يتمتع بالمنزلة التى كان زميله يحظى بها فى تعليم الكبار · فقد نظر بعض الكتاب الى المعلم الأولى نظرة لاتبجيل فيها ولا احترام ، فالجاحظ مثلا ينصح ·· ألا تسترشد بمن يكثر الاختلاط بالأطفال والنساء فى حين أن كثيرا من العلماء المشهورين كانوا معلمى أطفال مثل الكميت (١) والضحاك ابن مزاحم وعبد الله بن الحرث وأبى عبيد القاسم الذى ولى قضاء خراسان ·

وقد عير الحجاج بأنه معلم أطفال فى الطائف وكان اسمه وقتئذ كليبا فقال الشاعر فى ذمه مشيرا الى أنه كان يأخذ الخبز على سبيل الأجر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكه مـا ترى وآخر كالقمر الأزهر

وفى الكتب الاسلامية ارشادات كثيرة خاصة بالمعلم الأولى نختار منها النصائح الآتية :

ألا يقتسم الطعام مع الاطفال ولا يكتب اعلانات ويلصقها على باب الكتاب ليجتذب التلاميذ اليه لأن مثل هذا العمل لا يصدر الا عن السوقة من الناس ولا يفرق فى المعاملة بين الأغنياء والفقراء ، من التلاميذ ، ولا يستخدم الاطفال فى شئونه المنزلية وأن يعامل الجميع بروح العدل والانصاف ويقوم بتعليم الاطفال بنفسه واذا صعب عليه ذلك أمكنه ان يكلف بعض الكبار من الطلبة تعليم الصغار من التلاميذ · وهو نظام العرفاء فى التربية وهو نظام يسمح باشراك التلاميذ فى أن يعلم بعضهم بعضا ويملى بعضهم على بعض ·

وقد لخص أبو شامة الشافعى فى كتابه : « مجموعات الرسائل » آداب معلم الصبيان ، فيما يلى

« يبدأ باصلاح نفسه فان أعينهم اليه ناظرة وآذانهم اليه مصغية فما استحسنه فهو عندهم الحسن وما استقبحه فهو عندهم القبيح ، ويلزم الصمت فى جلسته ·· ويكون معظم تأديبه بالرهبة · ولا يكثر الضرب والتعذيب ·· ولا يمازح بين أيديهم أحدا ·· ويقبح عندهم

---

(١) كان يعلم الاطفال في مسجد الكوفة .

الغيبة ويوحش عندهم الكذب والنميمة . ولا يكثر الطلب من أهلهم . وكلها توجيهات قيمة لا اعتراض عليها فى التربية .

المؤدب أو المدرس الخاص :

المؤدب هو مدرس خاص يقوم بتعليم طفل «أو اكثر» من أبناء العظماء والخلفاء وتأديبه وتثقيفه فى بيته أو قصره ويشترك الأب مع المؤدب فى اختيار المواد التى يدرسها الابن ويستمر المتعلم فى دراسته حتى يصل الى المستوى المنشود من التعليم . ولكى يشرف المؤدب على تلميذه من الأمراء اشرافا تاما كان يخصص له جنـــاح فى قصر الأمير ليعيش فيه ويتناول طعامه وشرابه وينـــام فيه . وكان المؤدب يعطى تلميذه أربع ساعات أو أكثر كل يوم من وقته ويمكث معه سنوات يقضيها فى تعليمه وتهذيبه .

وكان الآباء من الخلفاء يحترمون المؤدبين لأبنائهم ويعنون بهمعناية كبـــيرة حتى كان لهم مركز أدبى كبير فى المجتمع . ولم يرفض هـــذه الوظيفة الا قليل من الزاهدين لعزة أنفسهم وزهدهم فى المال كالخليل ابن أحمد وعبد الله بن ادريس فانهما كانا يفضـــلان التدريس للجماعة لا لأبناء الطبقة الخاصة .

ولنذكر هنا جزءا من وصـــية عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده لنعرف الأغراض التى كان يرمى اليها من تربيتهم (علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن وجنبهم السفلة فانهم أسوأ الناس ورعا (١) وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشم (٢) فانهم لهم مفسدة ... وأطعمهم اللحم يقووا وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا (٣) ومرهم أن يستاكوا عرضـــا ويمصوا الماء مصا ولا يعبوه عبا واذا احتجت الى أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك فى ستر لا يعلم به أحد من الفاشية فيهونوا عليه » .

فعبد الملك ينصح للمؤدب بأن يعود أبناءه الصدق ويعنى بالناحية الخلقية عنايته بالقرآن الكريم وحفظه وفهمه ويبعدهم عن الســـافلين الساقطين من الناس حتى لا يحاكوهم فى أقوالهم البذيئة وأفعـــالهم الذميمة . ولا يتشبهوا بهم فى قلة ورعهم وسوء أدبهم ويجنبهم الحشم

---

(١) أقل الناس ورعا .

(٢) الخدم .

(٣) ينجد : يرتفع .

والخدم فانهم مفسدون لأخلاقهم وآدابهم · وعليه أن يعتنى باعطائهم اللحوم والاهتمام بتغذيتهم كى تقوى أبدانهم ولا تضعف أجسامهم ويعلمهم الشعر وأوزانه وقوافيه حتى يتذوقوا ما فيه من الجمال ويصيروا من العظماء ويرتفعوا فى مراكزهم فى الحياة · ولا تهمل العناية باسنانهم وتنظيفها بالسواك لأنها موصلة الى المعدة والمعدة تتأثر بما يصل اليها من طعام وشراب · وعودهم أحسن العادات الصحية عند شرب الماء واذا أردت أن توبخهم أو تؤدبهم أو تعاقبهم فاجتهد أن يكون ذلك كله سرا لا يعلم به أحد ممن يفشون الاسرار ويذيعونها كى تحافظ على مركزهم ومنزلتهم ولا يحتقرهم أحد · وفى هذه الوصية لم يفكر عبد الملك بن مروان فى التربية العلمية والدينية والأدبية وحدها ولكنه فكر أيضا فى التربية الخلقية والجسمية واللسانية والتربية الصحية والتربية الاجتماعية ·

وتختلف النصائح والوصايا باختلاف الآباء وآرائهم فى تعليم أبنائهم ولا يفوتنا هنا أن نذكر شيئا منها ·

قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده : ليكن أول اصلاحك لولدى اصلاحك لنفسك فان عيونهم معقودة بك فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما تركت · علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيتركوه · ولا تتركهم منه فيهجروه · روهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفه ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يحكموه · فان ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم · وعلمهم سنن الحكماء وجنبهم محادثة النساء · ولا تتكل على عذر منى لك · فقد اتكلت على كفاية منك · وفى رواية أخرى : وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء ·

فهو ينصح لمؤدب أولاده باصلاح نفسه أولا ليكون قدوة حسنة لهم فانه فى نظرهم مثلهم العالى ينظرون اليه بعيونهم ويحاكونه فى أقواله يستحسنون ما يفعل ويستقبحون ما يترك · وعليه أن يعلمهم كتاب الله ليهتدوا بهديه ويستضيئوا بنوره واحذر ان تصل السآمة والملل الى قلوبهم فيتركوه وشجعهم على فهمه وحفظه والاستمرار فى الانتفاع به ولا تتركهم منه فيهجروه ويتركوه · وكما تعنى بالقرآن الكريم يجب أن تعنى برواية الحديث الشريف واختر لهم من الشعر العربى أعفه وأبعده عن الغزل والهجاء كى لا يتأثروا بما يدرسون وما يقرءون ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يجيدوا العلم الأول ويتقنوه فان اتقان المادة تسهل

على المتعلم تذكرها وكثرة المواد الدراسية فى المناهج تشغل الطالب عن الفهم ، وعلمهم طرق الحكماء فى حياتهم وأعمالهم وتصرفاتهم حتى يقتدوا بها · وأبعدهم عن محادثة النساء خوفا عليهم من الفتنة والوقوع فى الضلال ولا تتكل على عذر منى لك فقد اتكلت على كفايتك ووثقت باخلاصك وأمانتك وكن لهم كالطبيب الماهر الذى يشخص المرض ويعرف كنهه أولا ثم يعمل على معالجته وهى نصيحة ثمينة يجب أن ينتفع بها كل مؤدب أو معلم حيث يجب أن يكون مثلا عاليا فى الاخلاق ماهرا فى التدريس يشجع طلبته على حفظ القرآن ودراسة الحديث ويرغبهم فيهما ويختار لهم من الشعر أعفه وأحسنه ويعمل على أن يجيدوا كل مادة ويقتدوا بالحكماء فى حياتهم ويبتعدوا عن النساء ويتفرغوا للعلم والدراسة ·

قال هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبى مؤدب ابنه : ان ابنى هذا هو جلدة ما بين عينى · وقد وليتك تأديبه · فعليك بتقوى الله · وأد الأمانة · وأول ما أوصيك به أن تأخذ بكتاب الله ثم روه من الشعر أحسنه ثم تخلل به فى أحياء العرب فخذ من صالح شعرهم وبصره طرفا من الحلال والحرام والخطب والمغازى ·

فهشام يقول لمؤدب ولده : ان ابنى أعز شىء لدى · وقد تركت لك تعليمه وتهذيبه · وقد وصاه بتقوى الله وأداء الأمانة فان لصلاح المعلم أثرا فى نفس المتعلم · والرجل الصالح ينتفع بعلمه وتقواه · وأول وصية يوصى بها هشام العناية بالقرآن الكريم وحفظه ودراسته ثم رواية أحسن الشعر حتى يكسب ابنه فوقا فى الشعر يمكنه من أن يقدر ما فيه من روعة الاسلوب وجمال الخيال وصواب الفكرة ، ثم الرحيل معه والانتقال بين أحياء العرب ليروى عنهم أحسن الشعر ويتلقى منهم أجمله وتفهيمه ما أحله الله وما حرمه حتى يكون بصيرا بدينه ويعرف حلاله من حرامه يفعل الأول (لله) ويجتنب الثانى · وشجعه على دراسة خطب الخطباء وحفظها والانتفاع بما فيها من حكم رائعة وآراء سديدة ونصائح ثمينة وأساليب بليغة ومعرفة مغزى كل خطبة وما يرمى اليه الخطيب من خطبته ·

وفى عصر الدولة الفاطمية أنشأ الفاطميون فى قصورهم مدارس خاصة لتعليم أبناء الولاة وسراة المسلمين وتربيتهم تربية تمكنهم من ملء المناصب الهامة فى الدولة ·

حقوق الطلبة وواجباتهم فى التربية الاسلامية :

عنيت التربية الاسلامية بحقوق الاساتذة وواجباتهم كما عنيت بما للطلبة من حقوق وما عليهم من واجبات وما يجب أن يتمسكوا به من آداب فمن حقوقهم ٠

تيسير سبل العلم لهم ، واعطاؤهم كل فرصة فى أن يتعلموا من غير تفرقة بين الغنى والفقير منهم ٠ وقد وصف الرحالة ابن جبير السبل التى يسرت للطلبة العلم والتعلم والمدارس العظيمة التى أنشئت لهم والأوقاف التى رصدت لهم وللمدرسين ، والقصور التى شيدت لسكناهم والربط التى أعدت وجهزت لهم ، وعدها كلها فخرا عظيما من مفاخر الاسلام والمسلمين ٠ فمن أراد الفلاح فليرحل الى بلاد المغرب ويتغرب فى طلب العلم فيجد كثيرا من المساعدات ، ولا عجب فقد كان المسلمون ينظرون الى طلاب العلم بعين الاجلال والتقدير لأنهم يسعون فى طلب أسمى شىء فى الوجود وهو العلم والمعرفة وكانوا يقولون : ان من يسعى فى طلب العلم يسير فى طريق الجنة ٠

ومن الواجبات التى يجب أن يعمل بها كل طالب ويجعلها نصب عينيه دائما ٠

١ ـ قبل أن يقبل الطالب على العلم ينبغى أن يبدأ بتطهير قلبه من الرذيلة لأن التعلم والتعليم يعدان من العبادة ٠ ولا تصح العبادة الا مع طهارة القلب والتحلى بالأخلاق الكريمة كالصدق والاخلاص والتقوى والتواضع والزهد والرضا والبعد عن الصفات الذميمة كالحقد والحسد والكراهية والكبرياء والغش والفخر والخيلاء ٠

٢ ـ أن يقصد من تعلمه تجميل روحه بالفضيلة والقرب من الله وليس الظهور بين الناس والمباهاة والجاه ٠

٣ ـ أن يثابر على تحصيل العلم ويبعد عن الأهل والوطن ولا يتردد فى الرحيل ان استدعى الأمر الذهاب الى أقصى المعمورة للبحث عن أستاذ من الأساتذة ٠

٤ ـ ألا يكثر من تغيير مدرسيه بل يجب عليه أن يتريث قبل أن يقدم على التغيير ٠

٥ ـ أن يحترم أستاذه ويجله ويوقره لله ويعمل على ارضائه بكل وسيلة من الوسائل ٠

٦ ـ ألا يضايق الاستاذ بكثرة الأسئلة ولا يعنته فى الجواب ولا يمشى أمامه ولا يجلس مكانه ولا يبدأ بالكلام حتى يؤذن له ٠

٧ ـ ألا يفشى لأستاذه سرا ولا يغتابن عنده أحدا ولا يطلبن عثرته وان يقبل معذرته ان زل ٠

٨ ـ الجد والدأب فى الدرس ووصل الليل بالنهار فى احراز المعرفة مبتدئا بتحصيل الأهم من العلوم ٠

٩ ـ أن تسود روح المحبة والمودة بين الطلبة حتى يصبحوا كأنهم أبناء رجل واحد ٠

١٠ ـ أن يبدأ الطالب أستاذه بالسلام ويقلل بين يديه الكلام ولا يقول له قال فلان خلاف ما قلت ولا يسأل جليسه فى مجلسه ٠

١١ ـ وأن يواظب على الدرس والتكرار فى أول الليل وآخره فان ما بين العشاء ووقت السحر مبارك ٠ وان هذا يذكرنا بقول الشاعر :

يا طالب العلم باشر الورعا واترك له النوم واترك الشبعا

١٢ ـ ان يوطن النفس على التعلم الى آخر العمر وألا يستهين بشىء من العلوم بل يجعل لكل واحد منها حظه الذى يستحقه ولا يحاكى ما سمعه من بعض أسلافه من الطعن فى بعض العلوم كالمنطق وعلوم الحكمة ٠

وأهم المبادىء التى قيلت فى التربية الاسلامية عن « العالم والمتعلم » :

١ ـ الخلق الكامل افضل من العلم :

لقد عد المسلمون الأخلاق الكاملة أفضل من العلم وجعلوها أساسا لنجاح العالم والمتعلم على السواء ٠ فكما أن الوضوء يجب أن يسبق الصلاة كذلك ينبغى أن يبدأ المعلم والطالب بتطهير نفسيهما من الرذائل والنقائص لأن العلم أيضا نوع من العبادة ٠ ولا ريب ان فى ذلك لب الحكمة ونهاية الرشد فكل تربية لا تؤسس على الخلق الكامل تعد تربية فاشلة وكل مدنية لا تؤسس على الخير والفضيلة تعد مدنية خداعة زائفة كالسراب ٠

٢ ـ تقديس العلم والعلماء :

ان من أروع مبادىء التربية الاسـلامية تقديس العلم والمعرفة وتقديس العلماء والمعلمين فالعلم كان مقدسا والمعلمون كانوا مقدسين لدى الاسلام والمسلمين · لهذا أخلص العالم والمتعلم الاخلاص كله فى الدراسة والبحث وثابرا عليهما ، فوجد بين المسلمين أفذاذ لا نظير لهم من العلماء والمتعلمين ولكن المغالاة فى هذا التقديس قد أدت الى اضعاف روح النقد بينهم ·

٣ ـ العناية التامة بتقوية الروابط الشخصية والألفة والمحبة بين العلماء والمتعلمين ·

فالعالم مطالب بالشـفقة على المتعلمين ومعاملتهم كما يعامل الأب ابناءه · والمتعلمون مطالبون بارضاء اساتذتهم واحترامهم وتبجيلهم · وفى تقوية الرابطة والألفة والمحبة بين العلماء والمتعلمين دعم لأسس النجاح فى التربية والتعليم ·

فان نجاح المربى يتوقف على غرس روح الثقة والمودة بينه وبين تلاميذه · فاذا اخلص المدرس لتلاميذه وأحسوا بعطفه عليهم وحبه لهم كان العسير من المواد ميسرا والصعب سهلا · وقد ينفر الطالب من علم من العلوم لنفـوره من مدرس ذلك العلم · وقد يحب المتعـلم مادة من المواد ويتعلق بها كل التعلق لحبه لمدرس تلك المادة وتعلقه به · ولقد تنبه فلاسفة التربية الاسلامية الى أثر حسن الصلة بين المدرس وتلاميذه فى التربية والتعليم فعنوا كل العناية بهذا المبدأ ودرسوا ميول الطلاب ومستواهم العقلى والعلمى وبحثوا عن خير السبل لافادتهم والنهوض بهم واستعملوا فى تعليمهم الترغيب والتشويق لا الارهاب والتخويف·وشجعوا استعمال المدح والثناء وتركوا التوبيخ والتأنيب فنجحوا كل النجاح فى اداء رسالتهم العلمية وكانت التربية الاسـلامية تربية مثالية تتمثل فيها الناحية الانسانية ·

واجبات المعلم فى نظر الغزالى :

ولنذكر هنا الواجبـات التى يجب على المعلم مراعاتهـا فى رأى الغزالى ·

١ ـ أن يشفق على المتعلمين ويجريهم مجرى بنيه · قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم « انما أنا لكم مثل الوالد لولده » فيعاملهم المعلم كما يعامل أبناءه ·

٢ ــ ألا يقصد بالتعليم جزاء ولا شـــكرا بل يقصد به وجه الله والتقرب اليه ·

٣ ــ ألا يدع من نصح المتعلم شـــيئا ، بل ينتهز كل فرصـــة لنصحه وارشاده ·

٤ ــ أن يزجر المتعلم عن سوء الاخـلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فالغزالى ينصح بالزجر بالاشارة والتلميح لا بالتصريح اذا حدث من المتعلم ما ينافى الاخلاق مع مراعاة الرأفة والرحمة فى زجره ·

٥ ــ أن يراعى مستوى الاطفال من الناحية العقلية ويخاطبهم على قدر عقولهم ولا يلقى اليهم أشياء فوق مستوى ادراكهم ، حتى لا ينفروا من التعلم ويتخبطوا فيما يفهمون · وهذا خير مبدأ فى التربية الحديثة اليوم ·

٦ ــ ألا يقبح فى نفس المتعلم علوم غيره · وينبغى أن يوســـع على المتعلم طريق التعلم فى غير علمه · ومعنى هـذا يجب ألا يتعصب لمادته ·

٧ ــ ينبغى أن يلقى الى المتعلم القاصر (الضعيف) الجلى اللائق به ولا يذكر له أن وراء هـــذا تدقيقا وهو يدخره عنه حتى لا تفتر رغبته ، ويضطرب عقله · ويقصد بهذا مراعاة مستوى الضـــعفاء من المتعلمين واختيار المادة السهلة الواضـــحة التى تنـــاسبهم ويجب ألا يشعرهم بأنهم ضعفاء أو أغبياء حتى لا يؤثر فى نفوسهم تأثيرا ســـيئا فان هذا النوع من الايحاء مضر بهم ·

٨ ــ أن يعمل المعـلم بعلمه فلا يكذب قوله فعله · قال الله تعـالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟ » « كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » وقال عليه الصلاة والسلام « لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا » وقال أيضا : « من ازداد علما ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله الا بعدا » ·

الفصل الثانى عشر

العقوبة فى نظر علماء الاسلام

قبل أن نتكلم عن العقوبة فى نظر فلاسفة الاسلام نقول : ان الغرض منها فى التربية الاسلامية ... الارشاد والاصلاح ، لا الزجر والانتقام (١) ولهذا حرص المربون من المسلمين على معرفة طبيعة الطفل ومزاجه قبل الاقدام على معاقبته وشجعوه على أن يشترك بنفسه فى أن يصلح الخطأ الذى أخطأه ، وتناسوا غلطاته وهفواته بعد اصلاحها .

وان روح الرفق والعطف والشفقة تظهر بوضوح فى التربية الاسلامية عند معاقبة الطفل فقد اشترط للعقوبة البدنية شروط وهى :

١ ـ ألا يضرب الطفل قبل أن يبلغ العاشرة من السن .

٢ ـ ألا يزيد الضرب على ثلاثة أسواط . وأعتقد ان المقصود بالأسواط هنا العصى لا الأسواط النوبية .

٣ ـ أن يعطى الطفل الفرصة فى أن يتوب عما فعل ويصلح الخطأ دون الالتجاء الى ضربه أو التشهير به .

ومن هذا يتضح بعد النظر فى التربية والشفقة والرأفة فى معاملة الطفل وأن روح العطف والشفقة فى معاقبة الطفل لم يمنع من استعمال الحزم والشدة وأساليب القوة معه لزجره ... اذا اقتضت الضرورة ذلك.

وقد عنى فلاسفة التربية الاسلامية بموضوع العقوبة عناية كبيرة سواء أكانت عقوبة معنوية أم بدنية واجمعوا على ان الوقاية خير من العلاج . ولهذا نادوا باتخاذ كل وسيلة لتأديب الأطفال وتهذيبهم من الصغر حتى يعتادوا أحسن العادات فى الكبر فلا نحتاج الى أن نعاقبهم .

ويرى ابن سينا أنه يجب البدء بتربية الطفل وتعويده الخصال الحميدة قبل أن ترسخ فيه العادات القبيحة لأنه من الصعب أن يتخلص منها اذا اعتادها وتمكنت من نفسه . واذا اضطر المربى الى الالتجاء الى العقوبة وجب عليه أن يحتاط كل الحيطة ويتخذ الحكمة فى تحديدها . وقد نصح ألا يعامل المعاقب بالشدة والعنف فى البدء بل باللين واللطف

---

(١) ارجع الى الفصل العاشر « العقوبة قديما وحديثا من كتاب (الاتجاهات الحديثة في التربية) للمؤلف .

ويستعمل معه الترغيب تارة والتخويف تارة أخرى · ويستخدم العبوس والتوبيخ والتأنيب اذا اقتضى الأمر · وأحيانا يكون النصح والتشجيع او المدح أجدى أثرا فى الاصلاح من التوبيخ والتأنيب · ومعنى هـــذا أنه يجب أن يعامل كل طفل المعاملة التى تناسبه وأن تدرس كل حالة على حدة ويعالج كل داء بما يصلح من الدواء ·

واذا اضطر المربى الى معاقبة الطفل فان ابن سينا يرى ألا يلجأ الى العقوبة الا عند الضرورة ، ولا يلجأ الى الضرب الا بعد التهديد والوعيد وتوسط الشفعاء ·· لاحداث الأثر المطلوب فى نفس الطفل(١) على أن تكون الضربات الأولى موجعة حتى تحدث فى نفس الطفل الأثر اللازم وتجعله ينظر الى عقابه بعين الجد واذا كانت الضربات الأولى غير موجعة فان الصبى يعد الضربات كلها هينة وينظر الى العقاب نظرة استخفاف ·

واننا نتفق مع ابن سينا فى جميع آرائه فى العقوبة الا فى النقطة الأخيرة وهى أن تكون الضربات الأولى موجعة لأن ايلام الطفل قد يؤثر فى نفسيته وقد يضر جسمه ومن الخير أن نبحث عن الباعث الذى دفع الطفل الى ارتكاب الذنب ونتدارك هذا الباعث ونعمل على اصـــلاحه بطريقة أخرى غير الضرب الموجع ·

العقوبة فى نظر الغزالى :

يرى الغـزالى أنه يجب على المربى أن يعـرف نوع المرض وسن المريض فى حالة تاديب الأطفال وتهذيبهم لأن المعلم فى نظره كالطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم وأمات قلوبهم · ومعنى هذا أن يعامل كل طفل المعاملة التى تلائمه ويبحث عن الباعث الذى أدى الى الخطأ وعن سن المخطىء ويفرق بين الصغير والكبير فى التأديب والتهذيب ويكون كالطبيب الماهر الذى يفحص علة المريض ويشـخص مرضه ويصف له العلاج الذى يناسبه ·

وينبغى اذا ضربه المعلم ألا يكثر من الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان ·

وكان الغزالى ضد الاسراع فى معاقبة الطفل المخطىء فقد نادى

(١) ابن سينا في كتاب السياسة صفحة ١٢ .

باعطائه فرصة ليصلح خطأه بنفسه حتى يحترم نفسه ويشعر بالنتيجة .. ومدحه وتشجيعه اذا قام بأعمال حميدة تستحق المكافأة والمدح والتشجيع . ولم يقل باللوم والزجر والتوبيخ لأن التشجيع يدخل السرور على النفس فتتشجع وتتقدم فى حين أن التوبيخ يؤدى الى الحزن والخوف وقلة الثقة بالنفس .

العقوبة فى نظر العبدرى :

ويرى العبدرى (١) أن من الواجب التفكير فى طبيعة الطفل المخطىء فان نظرة عابسة اليه قد تكون كافية لزجره واصلاحه . وقد يحتاج طفل آخر الى استعمال التوبيخ والتأنيب فى عقوبته . وقد يستدعى الأمر مع نوع آخر من الأطفال ضربهم وتحقيرهم . ويجب ألا يلجأ المربى الى استعمال العصا الا فى حالة اليأس من نجاح طريقة الاصلاح واللين والشفقة . ومن الخير دائما أن يقلل المربى من اتباع الشدة والعنف . واذا اقتضت الضرورة توقيع عقاب على الطفل فانه يكفى ثلاث ضربات خفيفة . وعلى أية حال لا ينبغى أن يتجاوز عدد الضربات عشرا . وقد نقد العبدرى بشدة الطريقة التى بها تستعمل عصا أغصان شجر اللوز وسيقان النخل والسياط « الكرابيج » النوبية والفلقة فى ضرب الطفل وعقوبته . والواقع أن استعمال العصا كان عاديا فى تربية النشء فلم ينج منها أبناء الخلفاء والأمراء ... واننا نوافق ابن العبدرى فى آرائه فى عقوبة الطفل لأنها تتفق مع العقل والمنطق والتربية وعلم النفس والخبرة والتجربة .

ابن خلدون والعقوبة :

كان ابن خلدون ضد استعمال الشدة والقسوة فى تربية الأطفال حيث قال : « من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها، ودعاه الى الكسل ، وحمله على الكذب والخبث خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة ولذلك صارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معانى الانسانية التى له » واننا نتفق معه فى رأيه وليس لدينا أى اعتراض عليه . وقد أسهب ابن خلدون فى توضيح ما ينشأ من الأثر

---

(١) فى الجزء الثانى من كتاب المدخل ص ١٦٤ .

السيىء بسبب القهر واستعمال الشـــدة والعنف فقال : « ان من يعامل بالقهر يصبح حملا على غيره ، اذ هو يصبح عاجزا عن الذود عن شرفه وأسرته لخلوه من الحماسة والحمية على حين يقعد عن اكتساب الفضـــائل والخلق الجميل ... وبذلك تنقلب النفس عن غايتها ومدى انسانيتها » .

وقد صدق ابن خلدون فى رأيه فالقسوة مع الطفل تعوده الجبن وتبعده عن الحماسة والشجاعة وتشعره بالظلم دائما .

وفى النهاية لخص ابن خلدون آراء فلاسفة التربية الاســـلامية فى العقوبة حينمـــا اقتبس نصيحة هارون الرشـــيد لمؤدب ولده الأمين فذكر أن الرشيد طلب الى الأحمر مؤدب ولده ألا يدع ساعة تمردون أن يغتنم فائدة تفيده من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، وألا يمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، ويقومه ما استطاع بالقرب والملاينة فان أباهما فعليه بالشدة والغلظة (١) .

فالتربية الاســـلامية تتفق كثيرا مع التربية الحديثة التى تعمل للاصلاح وتفكر فى الاصلاح وتبتعد بقدر الاستطاعة عن القهر والقسوة مع استعمال اللين والشفقة فى العقوبة .

« أنظر موضوع العقوبة فى كتاب الاتجاهات الحديثة فى التربية »

نحن والعقوبة المدرسية :

نعتقد أن العقوبة المدرسية لم توضع للقصـــاص أو الانتقام بل وضعت لاصـــلاح المعاقب وحماية بقية التلاميذ . فالطفل الذى يعبث بنظام حجرة الدراسة يجب أن يحمى زملاؤه من شره بوضعه بعيدا عنهم لعدم احترامه حقوق الجماعة ورعاية مصلحتها .

وان العقاب البدنى ليس بعلاج ناجع يحسم الداء ويبرىء العلة بل قد يكون سببا لتفاقم المرض وتطاول العلة . والعقاب الأدبى يؤثر فى التلميذ تأثيرا بالغا ، لايبلغه تأثير أى عقاب بدنى . فالتلميذ الذى ينتخب لمراقبة حجرة الدراسة ، ثم يرتكب ما لا يتفق وشعار المدرسة ، فيفصل ، وينتخب آخر لرياسة الفصل ... يؤثر فيه هذا النوع من العقـــاب الأدبى تأثيرا نفسيا شديدا ويود أن تعود اليه ثقة زملائه .

---

(١) ارجع الى مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥ .

ويجب على المربى أن يذكر أن هناك فرقا بين طفل وآخر فى طبعه ومزاجه وميوله وأخلاقه ويعرف تلاميذه معرفة حقة ليعامل كلا منهم المعاملة التى تليق به · فمن التلاميذ من تكفيه الاشارة ، ومن لا تروعه المقالة ومن يتألم اذا عوقب بالحجز آخر اليوم المدرسى ومن يجد مسرة فى هـذا الحجز ومن يحزن كل الحزن لطرده يوما من المدرسـة ومن يسر كل السرور لغيابه عنها ·

والحق أن كل تلميذ يعد قضية مستقلة قائمة بذاتهـا يجب أن ننظر اليه نظرا خاصا اذ أن ما يلائم هذا الطفل من العقاب ربما لا يلائم الآخر ·

فاذا أردنا أن ننجح فى تعليمنا وجب علينا أن نفكر فى كل تلميذ ونعاقبه بما يناسبه بعد أن نزن ذنبه ونعرف الحافز عليه · واذا شـعر المخطىء بذنبه وكان واثقا بعطف المدرس نحوه مد يده طالبا تنفيذ العقوبة شاعرا بالعدالة ملتمسا الرحمة مصمما على التوبة وعدم العودة الى ما فعل وبذلك نصـل الى الغرض من العقوبة وهو الاصـلاح · وما أجمـل قول المتنبى :

اذا أنت أكرمت الـكريم ملـكته ... وان أنت أكرمت اللئيم تمـردا
فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف فى موضع الندا
وما قتل الأحرار كالعفـو عنهمو ... ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا ؟

ويجب الا يمس نوع العقوبة كرامة الطفل والا يكون فيها اهانة له كأن تقول ان هذا التلميذ سرق كذا وتعلن هذا أمام المدرسة · فان للطفل شخصية يجب أن تراعى وكرامة يجب أن نحافظ عليها ·

الفصل الثالث عشر

المبادىء الأساسية فى مناهج التربية الاسلامية :

لم تكن المناهج محدودة مقيدة بساعات معينة لكل مادة فى الأسبوع كما هى اليوم فى مدارسنا ، ولكنها كانت عامة بحيث يترك للمعلم أو للمؤدب الحرية فى اختيار الكتب والمواد التى يدرسها للناشئين ٠

ذات مرة رأى المفضل بن زيد٠٠٠ابن اعرابية مسلمة ، فأعجب بمنظره فسألها عنه فقالت : « اذا أتم خمس سنوات أسلمته الى المؤدب فحفظ القرآن فتلاه فعلمه الشعر فرواه ورغب فى مفاخرة قومه وطلب مآثر آبائه وأجداده فلما بلغ الحلم حملته على أعنـــاق الخيل فتمرس وتفرس ولبس السلاح ومشى بين بيوت الحى وأصغى الى صوت الصارخ » ٠

ومن اجابة تلك الأم العربيـة المسـلمة نرى أن الطفل كان يسـلم للمؤدب وعمره خمس سنوات ـ وليس معنى هـــذا أن التعليم يبدأ فى الخامسة من العمر ـ فيحفظه القرآن الكريم بعد أن يعلمه طبعـــا القراءة والكتابة وبعد اجادة حفظه يعلمه الشعر ورواية الشعر ، ويرغبـــه فى دراسة تاريخ آبائه وأجداده وقومه والبحث عن مآثرهم ومفاخرهم حتى يبلغ الحلم فيتمرن على ركوب الخيل ويتعلم الفروسية واستعمال السلاح فاذا أجاد هذه الفنون الحربية ومهر فيها مشى بين بيوت حيـــه وقبيلته وأصغى الى صوت الصارخ ليعمل على انقاذه واغاثته ٠

وقد كتب عمر بن الخطاب رضى‌الله‌عنه المنهاج الآتى ، وأرسله الى‌الولاة من المسلمين ، وقال لهم : «أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » فعمر يأمر بتعليم الأولاد السباحة والفروسية والرماية وما سار من المثل وحسن من الشـــعر ٠ ونعتقد أنه حث على دراسة السباحة والعوم والرياضة البدنية والأمثـال العربية المشهورة والشعر العذب الجميل بعد معرفة مبادىء الدين الاسلامى وحفظ القرآن الكريم ودراسة الحديث الشريف ٠

وقد ذكر ابن سينا فى كتاب السياسة آراء ثمينة فى تربية الأولاد ونصح بالبدء بتعليم الطفل القرآن الكريم بمجرد استعداده جسميا وعقليا للتعليم ٠ وفى الوقت نفسه يتعلم حروف الهجاء والقراءة والكتابة ويدرس قواعد الدين ثم يروى الشعر ويبتدىء بالرجز ثم القصيدة لأن رواية الرجز أسهل‌وحفظه أيسر اذ أن أبياته أقصر ووزنه أخف٠ على أن يختار له

احسن الشعر مما قيل فى فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وما حث فيه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف ... فاذا فرغ الصبى من حفظ القرآن الكريم وألم بأصول اللغة العربية نظر عند ذلك فى توجيهه وارشاده الى ما يلائم طبيعته واستعداده .

وفى تلك النصيحة الأخيرة وهى توجيه المتعلم الى ما يناسب ميوله وطبيعته واستعداده تتمثل روح التربية الحديثة فى عصرنا هذا . فان علماء التربية اليوم ينادون بمراعاة استعداد المتعلم ورغبته فى الدراسة بحيث يوجه الى الناحية العلمية أو العملية أو الأدبية أو الرياضية أو الدينية أو الاجتماعية أو الفنية التى يميل اليها ويرغب فيها حتى ينجح نجاحا باهرا فى دراسته .

وكان ابن التوام يقول : « من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء أن يعلموهم الكتاب (اى الكتابة) والحساب والسباحة » وكان تحفيظ القرآن الكريم نقطة رئيسية فى التعليم الأولى بالكتاتيب .

وقد أوصى الغزالى بتعليم الطفل القرآن وأحاديث الاخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم ثم بعض الأحكام الدينية والشعر الخالى من ذكر العشق وأهله (١) .

واضاف ابن مسكويه (٢) مبادىء الحساب وقليلا من قواعد اللغة العربية .

وقد وضع الجاحظ منهاجا مفصلا (٣) ذكر فيه : « ولا تشغل قلب الصبى بالنحو الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوام فى كتاب ان كتبه وشعر ان أنشده وشىء ان وصفه ما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به كرواية الخبر الصادق والمثل الشاهد والمعنى البارع . ويعرف بعض الحساب دون الهندسة والمساحة ويعلم كتابة الانشاء بلفظ سهل وعبارة حلوة ويحذر التكلف ويحثه ـ فى قراءة البلغاء ـ أن يستفيد المعانى « الالفاظ » .

وتعد كلمة الجاحظ ثمينة فيما اشتملت عليه من آراء نعدها اليوم حديثة فى عالم التربية فهو يقصد من دراسة النحو القدرة على القراءة الصحيحة والكتابة الصحيحة والكلام الصحيح ولا يريد التوسع فى

---

(١) الاحياء للغزالى حـ ٣ ص ٥٧ .

(٢) فى كتاب تهذيب الاخلاق صفحة ٢٠ .

(٣) فى رسالة المعلمين ص ١٢ ـ ١٤ .

دراسته حتى لا يشغل الصبى عن دراسة التاريخ والامثال العربية ويرى الاكتفاء بالحساب للاحتياج اليه فى الحياة العملية وفى الانشاء ينصح بمراعاة العبارة العذبة السهلة الخالية من التكلف وفى المطالعة يحثه على الاستفادة من المعانى والآراء والافكار ٠

منهج المرحلة الاولى من التعليم الاسلامى :

ان المواد الاساسية التى كانت تدرس للاطفال فى المرحلة الاولى من تعليمهم هى بوجه عام : القرآن الكريم ومبادىء الدين والقراءة والكتابة والحساب ودراسة اللغة العربية ورواية الشـــعر الخلقى واجادة الخط ومعرفة القصص العربية والتمرن على السباحة والفروسية ٠

وكان لأبناء الامراء منهج يختلف بعض الاختلاف عن هذا المنهـــج العام فكانت هناك عناية خاصة باعدادهم للحيـاة التى تنتظرهم فتعلموا الخطابة ودرسوا التاريخ وخاصة تاريخ الملاحم وأدب مجالسة الناس مع العناية بالمواد الاساسية التى ذكرناها من قبل ٠

وقد نصح هشام بن عبـــد الملك لمؤدب ولده أن يعلمه كتاب الله والشعر الجيد والخطابة وتاريخ الملاحم ويعنى بتعليمه الاخلاق ويروضه على مخالطة الناس لكسب التجارب وفهم مختلف الطبائع ٠

وليس فى هذا المنهج الخاص ما ينافى الديمقراطية ولكن فيه عناية باعدادهم للحياة وتربيتهم تربية تنمى ذوقهم الادبى وتعودهم الارتجال والمناظرة وتبث فيهم الشجاعة والخلق الكامل وتعـــودهم الاختـــلاط بالشعب والاتصال به ودراسة أحواله الاجتماعية وفهم طبـــاع النـاس وميولهم ورغباتهم ٠ وهـذه هى الديمقراطية الحقـة فى الاسلام فالحـاكم ليس فى عزلة عن الشعب ولا يعيش بعيدا عنه ولكنه متصل بأفراده كل الاتصال ويعرف كل شىء يتعلق بهم ، يفرح لافراحهم ، ويحزن لاحزانهم، ويعمل لازالة ما يلحقهم من أذى أو ضرر ٠

وقد أشار ابن خلدون الى أهمية تحفيظ الاطفـــال القرآن الكريم وأوضح أن تعليم القرآن هو أساس التعليم فى جميع المناهج الدراسية فى مختلف البلاد الاسلامية لانه شـــعار من شعائر الدين يؤدى الى رسوخ الايمان ٠

ففى الوقت الذى تنوعت فيـه المناهج الدراسية واختلفت باختلاف

فعنى بعضهـــا بتدريس الحساب والالعـاب الرياضية كالعوم والسباحة والفروسية واهتم بعضها باجادة الخط ودراسة الادب والشعر والنحو ، وبعضهـــا بدراسة الحديث الشريف وقوانين العلوم ـ أجمعت البـــلاد الاسلامية كلها وأجمع المسلمون على العناية بتعليم القرآن وحفظه فى كل منهج من المناهج ٠

بماذا يمتاز المنهج فى المرحلة الاولى من التعليم الاسلامى ؟

ان من يدرس المناهج التى كانت متبعة فى الامبراطورية الاسلامية المختلفة البلدان يلحظ أنها فى المرحلة الاولى كانت تمتاز بما يأتى :

١ ـ كان الاتجاه فى المنهج دينيا فقـد كان الطفل يتعلم مبـــادىء القراءة والكتابة ثم يبدأ بحفظ القرآن الكريم ومعرفة قواعد الاسلام ٠ وقد كان غرض فلاسفة الاسلام من تحفيظ القرآن التبرك بأثمن كنز الهى واعظم ثروة روحية فى هذا العالم ٠ وقد ساعد الاطفال فى حفظه التأثر بأسلوبه العذب الجميل وعباراته الموسيقية المعجزة القوية وحكمه وآدابه المنطقية وقصصه المؤثرة ووصاياه الثمينة النادرة ٠ ولو أنهم لم يستطيعوا فهم معنى السور التى يحفظونها من القرآن لصغر سنهم وقلة ادراكهم ٠ وانتفعوا بالذاكرة القوية والحفظ الآلى فى الصغر ٠ ولا عيب فى هذا ففى استطاعتهم أن يعرفوا تفسيره حينما تكبر سنهم ويزداد ادراكهم ويقوى عقلهم ٠ ولو وجد عدد كاف من المدرسين الماهرين الممتازين فى الكتاتيب والمدارس الاسلامية لاستطاعوا بسهولة تفهيم الأطفال المعانى المقصـــودة من الآيات القرآنية قبل أن يحفظوها حتى يسهل عليهم الحفظ والتذكر ٠

٢ ـ العناية التامة بالتربية الخلقية فى تلك التربية وقد وفق علماء التربية من المسلمين كل التوفيق فى هذا الاتجاه وتركوا أثرا تربويا خالدا فى التربية الاسلامية وبرهنوا بأقوالهم وأفعالهم على بعد نظرهم وسداد آرائهم ٠ وهى آراء لا نبالغ اذا قلنا انها تتفق مع آراء علمـــاء النفس المحدثين فى القرن العشرين وقد وضحنا هذا فى الفصل الخاص بالتربية الخلقية فى الاسلام ٠

٣ ـ كما عنى المسلمون بالناحيتين الدينية والخلقية فى المرحلة الأولى من التعليم لم ينسوا العناية بالنواحى النفعية فى المنهج فعنوا بالشعر واللغة العربية وحسن الكلام والحساب والتاريخ والســـباحة والرماية والرياضة البدنية ولكنها لسوء الحظ لم تكن عامة فى جميع المناهج بالبلاد الاسلامية ٠

٤ ـ خاف المسلمون من التربية الجمالية والفنون الجميلة فى مرحلة

الطفولة فقد عدوا الموسيقا والرسم والحركات التوقيعية وأشعار الغزل والعشق مضرة بأخلاق الاطفال ولهذا حاولوا ابعادها عنهم فى طفولتهم ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر ما خلفه الاســـلام من الاثر فى النواحى الدينية والخلقية والثقافية والرياضية والعلمية والمثالية فى منهج التعليم الاسلامى بالمرحلة الأولى وهى مرحلة تشمل التعليم الابتدائى والمتوسط او الابتدائى والثانوى معا ٠

كيف كان منهج التربية فى المرحلة العالية ؟ ٠

ان من ينظر الى التربية والتعليم فى تلك المرحلة فى العالم الاسلامى يجد أن المنهج نوعان : (١) منهج دينى أدبى و (٢) منهج علمى أدبى ٠ ولنتكلم عن كل منهما فنقول :

١ ــ فى الوقت الذى اختير فيه المنهج الأول وهو الدينى الأدبى كان العالم الاسلامى يفكر فى معرفة الدين الاسلامى وحفظه ونشره فعنى العلماء بدراسة الدين والمواد التى لها صلة به كالحديث والتفسير وعلوم اللغـــة العربية والشعر العربى وعلم التاريخ لأنها تساعد فى فهم معانى القرآن الكريم ودراسته وتعين على تذوق الأدب العربى ومعرفة المواد الاجتماعية الانسانية ٠

١ ــ المنهج الدينى الادبى :

لتوضيح هذا المنهج نذكر هنا بعض الأمثلة للدراسات الدينيـــة الادبية :

(أ) ففى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى (ص ١٢٠ــ١٢١) قيل ان رجلا من ثقيف دخل على الوليد فقال له الوليد : أقرأت القرآن ؟

قال الاعرابى : لا يا أمير المؤمنين شغلتنى عنه أمور وهنات ٠

قال الوليد : أفتعرف الفقه ؟ ٠

قال الاعرابى : لا ٠

قال الوليد : أفرويت من الشعر شيئا ؟ ٠

قال الاعرابى : لا ٠ (وكان الوليد يلعب الشـــطرنج مع عبد الله ابن معاوية وكان قد اخفى الشطرنج بالمنديل عند دخول الأعرابى) فكشف الوليد المنديل عن الشطرنج وقال : (شاهك) فقال عبد الله بن معاوية : يا أمير المؤمنين ٠

قال الوليد : اسكت فما معنا أحد » ٠

ومعنى هذا أن من لم يقرأ القرآن ولم يعرف الفقه ويرو الشعر ولم يدرس الدين والأدب لا يعتد به ولا يفكر فيه أحد ويعد كالعدم لاوجود له٠

(ب) وفى معجم الأدباء لياقوت (١) : قال ابن عتاب : يكون الرجل نحويا عروضيا حسن الكتاب (أى الكتابة) جيد الحساب حافظا للقرآن راوية للشعر وهو راض بأن يعلم أولادنا بستين درهما ٠ ويقصد بهذا أن الرجل قد يكون مثقفا عالما بالنحو والعروض جيد الكتابة مجيـــدا للحساب حافظا للقرآن الكريم راوية للشعر العربى مثقفا ثقافة دينيـة أدبية ثم يرضى أن يقوم بالتدريس لأولادنا بستين درهما لأن المعلمين كانوا يعدون مهنة التعليم روحية مقدسة يعلمون النشء ابتغـــاء مرضـــاة الله لا يقصدون أجرا ولا يفكرون فى مال لزهدهم وتقواهم وقليل منهم كان يأخذ أجرا زهيدا كستين درهما ليستعين بها على الحياة ٠

(ج) وقد وضح المقرى فى كتابه نفح الطيب الدراسات التى اهتم بها المسلمون فى الأندلس فقال :

« وقراءة القرآن عندهم بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة وللفقه رونق ووجاهة ٠٠ وسمعة الفقيه عندهم جليلة ٠٠ وقد يقولون للكاتب النحوى واللغوى فقيه لانها عندهم أرفع السمات ٠ وعلم الأصول عنـدهم متوسط الحال والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة ٠٠ وكل عالم فى اى علم لايكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء ٠٠ وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات أنبل علم عندهم وبه تتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم » والشعر عندهم له حظ عظيم ٠

ومن هذا النص نرى أن المسلمين فى الأندلس كانوا يعنـــون كل العناية بالثقافة العالية ويشجعون الطلبة على التعمق فى البحث ، وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث ودراسة الفقه والنحو واللغة والأصـــول والأدب ويشمل معرفة التاريخ والنظم والنثر والقصص الطريفة ، وهى كلها دراسة دينية أدبية ترفع صاحبها وتجعل له منزلة سامية بين الملوك والأعلام ٠

(د) وقال الامام الشافعى رضى الله عنه : من تعلم القرآن عظمتقيمته

---

(١) ج ١ ص ٢٣ طبعة مصر ١٩٢٣ ٠

ومن نظر فى الفقه نبل قدره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن نظر فى اللغة رق طبعه ومن نظر فى الحساب جزل رأيه ٠

(هـ) وقد درس ابن قتيبة النحو وعلم المفردات والقرآن والتفسير والشعر ٠

(و) ولخص الخوارزمى ـ فى كتاب مفاتيح العلوم ـ المنهج الدينى الأدبى فيما يأتى :

١ ـ علم الفقه ٠

٢ ـ علم النحو ٠

٣ ـ علم الكلام ٠

٤ ـ الكتابة ٠

٥ ـ العروض ٠

٦ ـ علم الاخبار وخاصة تاريخ الفرس والتاريخ الاسلامى وما قبل الاسلام ٠ وتاريخ الاغريق والرومان ٠

٧ ـ الحساب فى كثير من الاحوال ٠

المنهج العلمى الادبى فى المرحلة العالية من الدراسة :

يختص هذا المنهج بالمرحلة التى تقدم فيها التفكير الاسلامى وظهرت الحرية فى التفكير واتسع مجال البحث ونهضت العلوم فى جميع النواحى العلمية والادبية وازداد النشاط العلمى والفلسفى فى الامبراطورية الاسلامية فأنشئت دور العلم وأسست دور الحكمة فى القاهرة وبغداد ودرس مع العلوم العربية من دين ولغة وتاريخ ـ العلوم الرياضية والطبيعية والطبية والفلسفية وترجمت العلوم من اللغات الاغريقية والفارسية والهندية الى اللغة العربية ٠ وانتشرت تلك العلوم التى ترجمت الى لغة العرب فى بلاد العالم الاسلامى القريبة والبعيدة وحدثت نهضة علمية وفكرية كبيرة وازداد نشاط العلماء فى الترجمة والتأليف والبحث فى المواد العلمية المختلفة ٠ وتمتد تلك المرحلة من منتصف القرن الثانى الهجرى الى نهاية القرن الرابع الهجرى حيث بلغت النهضة ذروتها فى التقدم ٠

قال مونرو فى كتابه تاريخ التربية ص ٣٣٣ : « ففى الطب والجراحة وعلم الادوية والفلك وعلم وظائف الاعضاء ـ وصل المسلمون الى ابتكارات هامة ٠٠٠ واخترعوا ساعة البندول ٠٠٠ وعلموا أوربا استعمال البوصلة والبارود فأثر علماء الاسلام فى النهضة العلمية لا يستطيع أن ينكره الا كل مكابر متعصب »

ومن الامثلة الآتية تتضح مميزات المنهج العلمى الادبى ٠

١ ـ فقد درس أبو اسحق الكندى فيلسوف الاسلام الطب والرياضة والشعر والمنطق والفلسفة والموسيقا فى القرن الثالث الهجرى ٠

٢ ـ ودرس ابن سينا القرآن والعلوم الاسلامية والعلوم الفلسفية والعلوم الطبيعية والطب والمنطق والشعر والحساب والهندسة والجبر ٠

٣ ـ ودرس أبو على الحسن ابن الهيثم ـ الذى كان يقيم بمصر ـ علم الالهيات والحساب والهندسة والجبر والطب والفلسفة وفروع العلوم المختلفة وهو العالم الطبيعى والمهندس الرياضى ومؤسس علم الضوء (١)٠

قال ابن الهيثم : اشتهيت ايثار الحق وطلب العلم واستقر عندى أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئا أجود ولا أشد قربة من الله من هذين الامرين ٠ فخضت لذلك فى ضروب الآراء والاعتقـــادات وأنـــواع العلوم والديانات فلم أحظ من شىء منها بطائل ٠٠ فرأيت أننى لا أصل الا عن آراء يكون عنصرها الامور الحسية وصورتها الامور العقلية ٠٠ فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى فى طلب علوم الفلسفة وهى ثلاثة : علوم رياضية ، وطبيعية ٠٠ والهية ٠٠٠ »

٤ ـ وفى الاندلس كانوا يجمعون بين العلوم الرياضية والطب والمواد الادبية مع الاقلال من الاهتمام بالعلوم الطبيعية ٠

٥ ـ وقد بين محمد بن موسى الخوارزمى العالم فى كتابه (مفاتيح العلوم) فى القرن الرابع الهجرى أنواع العلوم غير الاســـلامية ولخصها فيما يأتى :

(أ) العلوم الطبيعية : وتشمل الطب بفروعه : التشريح ، وعلم تشخيص الامراض ، وعلم العقاقير والعلاج والتغذية ٠٠٠ ثم علم المعـــادن والمناجم والنبات والحيوان وكيمياء تحويل المعادن الى ذهب ٠

---

(١) ٣٥٤ هـ ـ ٤٣٠ هـ ٠

(ب) العلوم الرياضية : وتشمل الحساب والهندسة والجبر وعلم الفلك والموسيقا والميكانيكا وعلم الآلات الرافعة ...

(جـ) المنطق .

٦ ـ وان من يطلع على رسائل اخوان الصفا وما فيها من الرسائل الرياضية التعليمية والرسائل الجسمانية الطبيعية والرسائل النفسانية العقلية والرسائل الناموسية والالهية والشرعية والدينية يرى بوضوح مقدار العظمة الفكرية والنشاط العقلى لدى علماء الاسلام فى القرن الرابع الهجرى .

وقد أشار الاستاذ براون فى كتابه « الطب العربى(١) » الى قصة «تودد الجارية» التى دونت فى كتاب ألف ليلة وليلة وهى حقا تدل على التعمق فى البحث والتوسع فى العلم أيام عظمة الامبراطورية الاسلامية .

وان نظرة واحدة الى تراجم علماء المسلمين كالفهرست لابن النديم وتاريخ الحكماء لابن أبى أصيبعة وتراجم القفطى ووفيات الاعيان لابن خلكان ومعجم الادباء لياقوت ترينا بوضوح أن كثيرين من المسلمين قد درسوا المواد العلمية فى جميع البلاد الاسلامية ولكن عدد من درسوها كانوا أقل ممن درسوا العلوم الدينية والادبية .

وباستعراض المناهج فى المرحلة العالية نستنبط ما يأتى :

١ ـ ان عناية المسلمين بالدراسات الدينية كانت كبيرة وسابقة للدراسات الاخرى .

وكان من رأى الفارابى وابن سينا واخوان الصفا أن الكمال الانسانى لا يتحقق الا بالتوفيق بين الدين والعلم .

٢ ـ أن الميل الى دراسة الادب والعلوم والانسانية كان أكثر من الميل الى الدراسات العلمية .

٣ ـ ان المنهج العلمى الادبى فى المرحلة العالية كان يمتاز بالتوسع فى معرفة كثير من العلوم والمواد الانسانية . فكان الغرض الاول من التربية الاسلامية وجدانيا قبل أن يكون عقليا. وكان طلبة الطب يدرسون مع فروعه المختلفة العلوم الطبيعية والرياضية والمنطق والنحو والشعر العربى وبعض العلوم الاسلامية لان التخصص كان قليلا .

---

(١) Arabian Medicine

الفصل الرابع عشر

المبادىء التى روعيت فى التربية الاسلامية عند اختيار المناهج الدراسية

فى التربية الحديثة اليوم روعيت ميول الاطفال ورغباتهم فى الطفولة فاختير لهم من المواد الدراسية القصص الخرافية وحكايات عن الحيوان والطيور ومشاهد الطبيعة والتعبير بالرسم والاشغال اليدوية والحركات التوقيعية وأناشيد الطفولة ، كمـــا روعيت الفروق الفردية بينهم والمواد المتصلة بالبيئة المدرسية والنواحى المهنية التى تعد الانسان اعدادا كاملا وتربيه تربية اجتماعية وجسمية وعقلية ووجدانية وعملية وخلقية وتجعله قادرا على كسب عيشه وتكون منه انسانا كاملا ولهذا حفل المنهج بكثير من المواد الدراسية ٠

واذا نظرنا الى التربية الاسلامية لحظنا انها عند اختيار المنـــاهج الدراسية قد راعت المبادىء الآتية :

١ ـ أثر المـــادة فى تربية النفس وكمالها فدرست العلوم الدينية والالهية لان أشرف العلوم معرفة الله وصفـــاته اللائقة به ٠ فالفـارابى فيلسوف القرن الرابع الهجرى يضع علم الالهيات فى مرتبة الشرف الاولى ويعده أسمى العلوم وأعظمها ٠ وما سواه من العـــلوم خدم وتبع له ٠ ولذلك كان بعض العلماء يسمونه أحيانا العلم الاعلى كما يسمون الرياضة بالعلم الاوسط والطبيعة بالعلم الادنى ٠

وقد ذكر النمرى القرطبى فى كتابه «جامع بيان العلم وفضله(١)» ان العلوم عند أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى ، وعلم أدنى ، وعلم أوسط ، فالعلم الاعلى عندهم هو علم الدين ٠ والعـلم الاوسط : هو معرفة علوم الدنيا ٠٠٠ كعلم الطب والهندسة ٠٠٠ والعلم الادنى كالصناعات والفنون العملية مثل السباحة والفروسية والخط وهى المواد التى تكتسب فيهـا المهارة بتدريب الجوارح والمرانة ٠ ففلاسفة الاسلام كانوا يعتقدون ان العلوم الدينية أفضل العلوم وأشرفهـــا وأسماها وأرقاها وقد اشترطوا لدراستها البعد عن الاغراض المادية والدنيوية فلم يتعلموها لكسب مال أو جاه أو نفوذ أو ارضاء حاكم أو سلطان ولكنهم كانوا يقصدون من تعلمها وتحصيلها ارضاء الله ٠ وقد أثر عن الرسول الكريم انه قال : « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتجاروا به السفهاء ولا لتحيزوا به المجالس ،

---

(١) ج ١ ص ١٧٦ ٠

ولكن تعلموه لوجه الله وللدار الآخرة » كما اشترطوا لكسب العلم والمعرفة تطهير النفس من الرذائل والنقائص · قال الامام الغزالى فى كتابه فاتحة العلوم صفحة (٥) وكمال الآدمى فى قربه من الله تعالى · وانما يقرب بصنعة العلم · فما دام علمه أكثر وأكمل فهو الى الله أقرب وبملائكته أشبه · »

وأهم العلوم الدينية : القرآن الكريم ، والتفسير ، والحديث الشريف ، والفقه ، والالهيات · ولم تمنع دراسة العلوم الدينية الطلاب من دراسة المواد الاخرى كالحساب والهندسة والجبر ··· وكان لهم الحرية فى دراستها بشرط ألا تعوقهم عن دراسة الدين ·

وقد قسم الغزالى العلوم الى ثلاثة أقسام :

(أ) قسم مذموم قليله وكثيره كالسحر ·

(ب) وقسم محمود قليله وكثيره محمود الى أقصى غايات الاستقصاء ، وهو العلم بالله وسنته فى خلقه وهو علم مطلوب لذاته وللتوصل لسعادة الآخرة ·

(ج) وقسم يحمد منه مقدار الكفاية كالنجوم (١) ·

فالمثل الأعلى للمنهج فى العصر الذى عاش فيه الغزالى هو وضع العلوم الدينية فوق جميع العلوم ·

٢ ـ أثر المادة فى النصح والارشاد باتباع طرق الحياة الفاضلة الكاملة كعلم الاخلاق وعلم الحديث والفقه الاسلامى ·· ، وان اختلج فى صدرك ·· ان الاغراض مختلفة فى أمر العلوم ·· وأردت أن تعرف الافضل (منها) فاتبع قول الشاعر المتصوف :

كل العلوم سوى العلوم مشغلة ... الا الحديث والا الفقه فى الدين
والعلم ما كان قال حدثنا ... وما سواه فوسواس الشياطين

ولكن هذا القول لم يمنع طلاب العلم من الدراسة والبحث فى جميع العلوم مع التعمق فى دراسة الدين ·

وقد عنيت التربية الاسلامية بالتربية الخلقية فى المرحلتين الاولى والاخيرة من التعليم كما عنيت بدراسة العلوم الدينية ـ وخاصة الفقه ـ لانها أساس الفضائل والاخلاق الكاملة ·

---

(١) الاحياء للغزالى جـ ١ ص ٣٦ · بتصرف ·

قال أحد تلاميذ الامام الشافعي : كنت يوما عنـد الامام الشافعي أسائله عن مسائل بلسان أهل الكلام (علماء التوحيد) قال : فجعل الشافعي يسمع منى ثم يجيبنى عنها بأخصر جواب • فلما انتفيت قال : يابنى هل أدلك على ما هو خير لك من هذا ؟

قلت : نعم •

قال: يا بنى هذا علم ان أصبت أنت فيه لم تؤجر وان أخطأت كفرت فهل لك فى علم ان أصبت فيه أجرت (أثبت) وان أخطأت لم تأثم ؟

قلت : ماهو ؟

قال : الفقه •

ومن علماء الاسلام من عد دراسة معظم العلوم سواء أكانت دينية أم فلسفية مؤدية الى تحقيق الغـــاية الروحية والخلقية فأقبلوا على دراستها بقلوبهم • لتحقيق هذه الغاية الروحية والخلقية قبل أى اعتبار آخر • وهذه النزعة تظهر بوضوح فى اخوان الصفاء ورسائلهم •

وقد شجع بعض فلاسفة الاســـلام دراسة علم الجغرافيا الطبيعية لاعتقادهم أن دراسة علم النفس تشوق النفس الى الصعود الى عالم الافلاك والارواح • وشجع آخرون دراسة علم الأخبار وهو علم التاريخ وله منزلة كبيرة فى منهـــج التربية الاسلامية • فقد ذكر ياقوت فى كتابه : معجم البلدان : أن القرآن يستمد من التاريخ حوادث معينة للعظة والعبرة • وقال المقريزى عن علم التاريخ : « انه من أجل العلوم قدرا وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا لما يحويه من المواعظ ••• والاطلاع على مكارم الاخلاق ليقتدى بها واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى » •

وقال ابن خلدون فى مقدمته : « ان التاريخ يوقفنا على أحوال الماضين من الامم فى أخلاقهم والانبياء فى سيرهم والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء بهم فى أحوال الدين والدنيا معا » ص ٧٦ •

٣ ـ هناك مواد كان المسلمون يدرسونها لما فيها من لذة فكرية ولذة علمية وهذا هو ما يقصده المثاليون من علماء التربية اليوم من دراسة العلم لذات العلم •• كما أن هنـاك مواد كان علماء الاســلام ينادون بدراستها لفائدتها العملية المباشرة فى الحياة• فالمنطق كان يدرس لان مراعاته تعصم الذهن عن الخطأ فى الفكر والحساب والهندسة يدرسان ليعتاد المتعلم عادات عقلية ووجدانية خاصة كالدقة فى التفكير والدقة فى القول والعمل ومعرفة

المواريث ، ومواعيد الصيام والمعاملات التجارية ، والفقه يدرس لفهم أحكام الشريعة الاسلامية فى العبادات والمعاملات ، والنحو يعلم ليعصم اللسان عن الخطأ فى القول ، والقـــلم عن الخطأ فى الكتابة ، ويقرأ المتعلم قراءة صحيحة • ويكتب كتـــابة صحيحة ، والطب يدرس للوقاية من الامراض وعلاج المرضى •

٤ ــ دراسة العلم لانه ألذ شيء فى نظر المسلمين • ان الانسان محب للاطلاع بفطرته لهذا عنى فلاسفة الاسلام بدراسة كثير من العلوم والفنون ليشبعوا ما لدى الانسان من ميل فطرى الى الاطلاع والمعرفة • وهذا هو النوع المثالى من التعليم حيث يدرس الطالب العلم لذات العلم ، لان فيه لذة علمية لا نظير لها • قال الحاج خليفة فى كتابه « كشف الظنون » ص ١٦ : « والعلم ألذ الاشياء وأفضلها • وشرف العلم اما لذاته أو لغيره والعلم حائز للشرفين جميعا ، لانه لذيذ فى نفسه فيطلب لذاته ولذيذ لغيره فيطلب لأجله • أما الاول فلا يخفى على أهله أنه لا لذة فوقها لانهـــا لذة روحانية وهى اللذة المحضة أما اللذة الجسمانية فهى دفع الألم فى الحقيقة » وقال أيضا : « ليس الغرض من الدرس تحصيل الرزق فى هذه الدنيـــا ولكن الغرض الوصول الى الحقيقة وتقوية الخلق » فالتربية الاســـلامية كانت مثالية تطالب بالعلم لما فيه من لذة روحية وللوصول الى الحقـــائق العلمية والاخلاق النبيلة ، ولم تكن فى اساسها مادية بل كانت المادة أو كسب الرزق أمرا عرضيا فى الحياة لم يقصد الكسب لذاته بل كان أمرا ثانويا فى التعليم • وان من ينظر الى ما تركه المسلمون من التراث الادبى الخالد والتراث العلمى العظيم يجد أمامه ثروة لا نظير لها فى العالم • تدل دلالة واضحة على شدة تعلق المسلمين فى عصورهم الذهبية بالادب لذاته والعلم لذاته لانهم كانوا يعيشون فى عالم روحى لا عالم مادى حيث طغت الناحية الروحية على الناحية المادية •

وقد ادعى الدكتور مكدونالد خطأ فى كتابه « الحالة الدينية والحياة فى الاسلام(١) » ان التعليم الاسلامى مادى (نفعى) تماما لا يعنى بميول الافراد فالمعرفة لابد أن تكون ذات فائدة بالنســـبة لهذه الدار أو للدار الآخرة والحق أن الدكتور مكدونالد لا يعرف روح التربيـــة الاسلامية ولو عرفها حقا بدون تعصب للمس مافيها من التربية الروحية المثالية: فقدكان العلماء من المسلمين يجدون لذة فى العلم والبحث ويتفرغون للدراسة لمـــا

(١) B. Mc. Donald : Religions Attitude and life in Islam, University of Chicago, P. 12

فيها من لذة علمية ، يقومون بالتدريس من غير أجر ، ولا يقصد الطالب من التعلم ناحية مادية أو نفعية ولا يفكر فى التعلم للحصول على وظيفة أو عمل أو نيل مركز أو جاه • فالاساتذة كانوا يهبون حياتهم للعلم والتعليم • والطلبة كانوا يجعلون حياتهم كلها للدراسة والتعمق فى العلم ، فقد كانوا يسافرون ويغتربون ويحتملون مشاق السفر والانتقال من بلد الى آخر لتلقى العلم من الاساتذة المشهورين والبحث عنهم وأخذ العلم من مناهله الاولى حبا للعلم • وكانوا متفرغين للعلم مقبلين عليه ، يجدون لذة كبيرة من التعب فى سبيل طلب العلم والانتاج العلمى •

فالتربية الاسلامية كانت تميل الى الناحية المعنوية الروحية لا الى الناحية المادية النفعية لا يشك فى ذلك من يطلع على أى كتاب قديم فى التربية الاسلامية ولم تنس الناحية المادية • وكان التعليم الاسلامى يعنى كل العناية بميول الافراد الطبيعية واستعداداتهم الفطرية ، ويوجههم ويرشدهم الى النواحى التى يميلون اليها بطبيعتهم •

فالدكتور مكدونالد كان مغاليا فى دعواه متعصبا فيما رآه • لم يقرأ شيئا من آراء الغزالى أو الفارابى أو ابن سينا أو العبدرى أو الزرنوجى أو ابن خلدون فى التربية والتعليم • ولو قرأ أى كتاب لأحد هؤلاء الفلاسفة لاقتنع كل الاقتناع بأن التربية الاسلامية ما كانت فى يوم من الايام مادية كما هى اليوم فى انجلترا والولايات المتحدة الامريكية، والرأى أن المسلمين كانوا شغوفين بالعلم لذات العلم والادب لذات الادب والفن لذات الفن معتنين بالناحية المعنوية للعلوم مراعين ميول الأفراد فى الدراسة والتعلم والتوجيه والارشاد • وفى استطاعة كل باحث أن يرى هذا الروح واضحا فيما تركه المسلمون من تراث خالد فى العلوم والفنون والرياضة •

وان الروح المثالى فى التربية الاسلامية يبدو فيما ذكره الحاج خليفة فى كتابه (كشف الظنون) صفحة ١٧ « ان العلوم ليس الغرض منها الكسب بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الاخلاق • وان من تعلم للاحتراف لم يأت عالما وانما جاء شبيها بالعلماء » فليس الغرض من التربية الاسلامية ماديا صرفا كما يدعى الدكتور مكدونالد ولكن الغرض الاساسى معرفة الحقائق العلمية وتهذيب الاخلاق الانسانية • وان من تعلم ليكون ماهرا فى حرفة من الحرف أو مهنة من المهن فلن يكون عالما ولكنه سيكون شبيها بالعلماء كما قال الحاج خليفة • هذه هى التربية الاسلامية المثالية • وليس معنى هذا أن المسلمين أهملوا التعلم لكسب الرزق كلية •

وسنوضح هذه الفكرة فى التعلم المهنى لكسب الرزق فى المبدأ التالى ٠

٥ ـ التعليم المهنى والفنى والصناعى لكسب الرزق :

كانت عناية التربية الاسلامية بالتربية الروحية والدينية والخلقية تامة ، يلمس ذلك كل ما اطلع على ما كتبه فلاسفتها وعلماؤها ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تهمل توجيه المتعلمين لدراسة بعض المواد أو التدريب على بعض المهن والفنون والصناعات بعد الانتهاء من حفظ القرآن ودروسهم الدينية ، لاعدادهم لكسب عيشهم ورزقهم فى الحياة التى تنتظرهم ٠ أنظر الى ابن سينا حيث قال : « اذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى مايراد أن تكون صناعته فيوجه لطريقه ٠ فان أراد الكتابة أضاف الى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما أشبه وطورح الحساب ودخل به الديوان وعنى بخطه وان أريد أخرى أخذ به فيها ٠

فدراسة القرآن ومعرفة أصول اللغة كانتا من المواد الدراسية الاساسية فى المناهج الاسلامية فاذا انتهى الصبى منهما نظر فى أمره وفى الصناعة التى يميل اليها وأرشد الى السير فى طريقها حتى يجيدها ٠ واذا كان يميل الى الادب وأراد أن يكون كاتبا من الكتاب وجب عليه بعد دراسة علوم اللغة العربية أن يدرس رسائل الكتاب وخطب الخطباء ومحادثات الادباء ومناظراتهم ومناقشاتهم وما أشبهها ومرن على المحاسبة وعنى باجادة خطه ووظف فى الديوان ٠ وان أراد مهنة أخرى من المهن أعد لها ، حتى يكسب المهارة فيها ٠ أما العناية بالنواحى النفعية والمادية التى تأتى عرضا عن العلم والتعلم بطريقة غير مباشرة فتظهر فيما كتبه الادباء والشعراء فى فوائد العلم ونتائجه وأثره فى التقدم على النظراء والاقران والتمتع بالمزايا الادبية والفوائد المادية ٠

ومما يدل على عناية المسلمين بالخط لكسب الرزق منه القصة الآتية :

لما حضرت الوفاة أبا الغزالى وصى به وبأخيه أحمد الى صديق له من المحبين للخير وقال له : انى آسف كثيرا لعدم تعلمى الخط وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين وهما محمد وأحمد فعلمهما ولا لوم عليك فى أن ينفد فى ذلك جميع ما أتركه لهما ٠

فلما مات الاب أقبل الصوفى على تعليمهما الى أن انتهى ذلك النذر اليسير الذى كان قد تركه لهمـا ابوهما • وتعذر على الصـوفى أن يقوم باطعامهما • فقال لهما :

اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما • وانى رجل فقير زاهد ليس لى مال فأواسيكما به • وان أصلح شيء أراه مناسبا لكما أن تلجأا الى مدرسة كأنكما من طلبة العلم فتحصلا على القوت الضرورى الذى يعينكما على الحياة •

ففعلا ذلك • وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما • وكان الغزالى يحكى هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فابى أن يكون الا لله •

وقد كتب المسلمون كثيرا عن فوائد العلم ومزايا التعليم الروحية والمادية وأثره فى التخلص من الفروق الاجتماعية بين الافراد والوصول الى أسمى المراكز والمراتب ولكنهم لم يقصدوا من العلم هذه الفوائد والمزايا بل قصدوا بالعلم مرضاة الله ولكن هذه الآثار أتت عرضا من غير قصد • فالتعليم الاسلامى كان فى الغالب روحيـا ولكنه لم يهمل التعلم لكسب العيش والرزق •

وقد كان هناك علماء من المسلمين يعارضون الكسب بالتعليم ويذمون العلم اذا قصد به الكسب ، ولاعجب فقد كانوا يقصدون وجه الله بعلمهم • ويعملون عملا آخر يربحون منه ما يقتاتون فى الحياة فأبو على الحسن بن الهيثم مثلا كان ينسخ الكتب من المكتبات بأجر وكان غيره يشتغل بالنسخ أو زراعة الحقول أو أية صنعة من الصناعات لكسب الرزق • وكان هناك علماء آخرون من المسلمين يشتغلون بأجر فى القضاء ويدرسون بأجر فى التعليم• ويمكننا أن نقول حقا (ان الغرض الاسمى والهدف الاول من العلم والدراسة فى التربية الاسـلامية هو التربية الخلقية والروحية) والعلم لذات العلم ، والعلم حبا للعلم فلم يقصد علماء الاسلام من العلم والتعلم الحصول على وظيفة من الوظائف أو منصب من المناصب ولم يريدوا الجاه أو القوة والسلطان بل أرادوا العلم للعلم ومرضاة الله وكرهوا أن يكون الغرض من العلم والدافع اليه ماديا صرفا ولم يقصدوا الكسب بعلمهم ، بل كان الكسب يأتى عرضا من غير طلب •

ففى التربية الاسلامية كان العلم يدرس لذاته وكان من أسمى أغراض التربية ولم تكن الناحية المادية هى الباعث الاول على طلبه ، بل كانت ثانوية تأتى عرضا من غير قصد . فاللذة العلمية والناحية الروحية قد

تغلبتا على الناحية المادية والنفعية وهـذا هو الروح المثـالى والغرض الأسمى فى التربية الاسلامية .

٦ ـ دراسـة بعض المـواد وسيلة لدراسة غيرها . فقـد درس المسلمون اللغة العربية والادب لانهما يسـاعدان على فهم تفسير القرآن والحديث الشريف والفقه الاسلامى . وقد وصل علماء الاسلام الىدرجة كبيرة من التعمق والكمال فى العلوم اللغوية كالنحو والبلاغة والشـعر وتركوا فيها آثارا علمية خالدة لا نظير لها فى اية لغة من لغات العالم ، مع انهم كانوا يدرسونها وسيلة لدراسة غيرها .

والخلاصة ان التربيـة الاسلامية قد عنيت بالدراسات الدينيـة والخلقية والروحية أولا ثم عنيت بالدراسات الثقـافية ثانيا . وأهم فرق بين التربية الاسلامية والتربية الحديثة ان الاولى كانت مثالية هدفهـا الأسمى الجانب الروحى والتربية الخلقية الكاملة . فلم يقصد المسلمون من العلم والتعلم جاها أو مركزا او وظيفة أو مالا ولكنهم كانوا يدرسون العلم لذات العلم وارضـاء الله فألفـوا كتبا قيمة وتركوا آثارا علمية خالدة الى اليوم .

اما التربية الحديثة فقد تغلبت فيها الناحيـة المادية والدنيـوية فكل فرد فى المدرسة او الجامعة او المعهد يريد بعد الانتهاء من الدراسة وظيفة أو عملا أو مركزا واشتد الصراع والاقبال على التعليم من اجـل الوظيفة والمال وضعف البحث وقل الانتاج العلمى وزالت قداسة العلم وعظمة العلماء .

وفى الوقت الذى عنيت فيه التربية الاسلامية بالقيمة العلميـة الروحية لم تهمل العناية بالمواد الثقافية والاعـداد المهنى والتـدريب العملى والتفكير فى الحياة . عملا بقول الرسول الكريم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ولا نبالغ اذا قلنا ان العالم اليوم فى حاجة الى التربية الاسلامية تلك التربية المثالية الروحية الخلقية الدينية ، حتى نتعلم لذات العـلم ، ولذة العلم ، ونتخلص من الفساد والشر والرذيلة ، والشره والطمع ، والاسـتعمار والطغيـان ، والحـروب وويلاتهـا ونتمتع بحيـاة هادئة . وحـرية تامة وعـدالة مطلقة وسلم دائم وعيشة تعاونيـة ديمقراطية سعيدة .

الفصل الخامس عشر

القواعد الاساسية فى التربية الاسلامية

سنوضح الآن القواعد الاساسية للتدريس للاطفال فى التربية الاسلامية بأقوال بعض العلماء من المسلمين كالغزالى وابن سينا والزرنوجى والعبدرى وابن خلدون :

١ ـ عدم تحديد السن لبدء التعليم :

لم تحدد سن لبدء تعليم الاطفال : فكان بعض الآباء يرسلون اولادهم للتعلم آونة فى الخامسة من عمرهم واحيانا فى السادسة او السابعة ولم تلزمهم الحكومة بارسالهم فى سن معينة فقد كان طلب العلم فى الاسلام فرضا على كل مسلم ومسلمة . وقد ترك للآباء اختيار الوقت المناسب لارسال أولادهم الى الكتاتيب او غيرها للتعلم .

وقد انتقد العبدرى فى كتابه مدخل الشرع الشريف (١) ـ الآباء الذين يرسلون أبناءهم الى الكتاتيب قبل السنة السابعة من العمر قائلا ان السلف الصالح كانوا يرسلون أبناءهم الى الكتاب فى سن السابعة وهى السن التى يكلف فيها أولياء الامور تعليم الاولاد الصلاة والفضائل من الاخلاق . ولكن الاطفال يذهبون الآن للتعلم فى سن مبكرة . فليحذر المدرس من تعليمهم القراءة فى سن مبكرة لان تعليمهم المبكر فى الرابعة أو الخامسة يرهقهم جسميا وعقليا . والواقع أن الآباء يرسلون اطفالهم الى المدارس والكتاتيب مبكرين لا يقصدون تعليمهم القراءة والكتابة ولكنهم يريدون التخلص من متاعبهم بابعادهم عن الدار أو البيت .

وان التربية الحديثة اليوم تؤيد ما رآه العبدرى من علماء الاسلام قديما فى نقد التبكير فى ارسال الاطفال الى المدرسة فى سن الرابعة او الخامسة . واذا أرسلوا فى تلك السن فانهم يرسلون الى رياض الاطفال ليلعبوا ويتعلموا بطريقة اللعب فى التربية .

٢ ـ عدم تحديد المدة التى يمكثها الطفل فى الكتاب :

لم تكن هناك مدة محدودة يمكثها الطفل للتعلم فى الكتاب فقد كان الطفل يرسل الى المكتب فيتعلم مبادىء القراءة والكتابة ثم يأخذ فى حفظ السور القصيرة من القرآن فيحفظ جزء عم ثم جزء تبارك

---

(١) جـ ٢ ص ١٦٣ .

بالترتيب ثم يستمر فى حفظه حتى يحفظ بعضه أو كله وقد يستمر الصبى فى الكتاب الى سن المراهقة . ويتعلم دروس الدين وبعض الاحاديث ويدرس فى الوقت نفسه الحساب والنحو والشعر .

٣ ـ التفرقة فى الطريقة التى تتبع فى التعليم فطريقة التدريس للاطفال تختلف عن الطريقة التى تتبع فى التدريس للكبار . وقد نادى الغزالى بذلك المبدأ لان هناك فرقا بين ادراك الصغار وادراك الكبار وقال : ان من اول واجبات المربى ان يعلم الطفل ما يسهل عليه فهمه لأن الموضوعات الصعبة تؤدى الى ارتباكه العقلى وتنفره من المعلم، ويعد هذا الرأى من أهم الآراء فى التربية الحديثة فى القرن العشرين .

ويشاركه العلامة ابن خلدون فى هذا المبدأ فهو يرى ايضا مراعاة ادراك الطفل ومستواه عند التدريس له حيث يقول : « وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى ادركنا . يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبون ذهنه يحلها ويحسبون ذلك مرانة على التعليم وصوابا فيه ... فان قبول العلم والاستعداد له ينشأ تدريجيا فيكون المتعلم أول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا الأقل وعلى سبيل التقرب والاجمال بالامثلة الحسية ثم لايزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذى فوقه حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم التحصيل .. » فالغزالى وابن خلدون وغيرهما يرون ان تفكير الطفل يخالف تفكير الرجل ويجب مراعاة ذلك فى طريقة التدريس » .

٤ ـ الا يخلط المعلم علمين معا :

لكى يضمن تيسير عمل المدرس يرى ابن خلدون « الا يخلط المعلم علمين معا فانه حينئذ قل ان يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر .. ومعنى هذا انه يجب ان يكون المدرس مدرس مادة يتخصص فيها حتى يجيدها .

٥ ـ العناية بالامثلة المحسة لتقريب المعنى الى أذهان الاطفال وهو مايقصده علماء التربية من مناداتهم بالانتقال من الامور المحسة الى المعقولة حتى يسهل على المتعلمين الفهم والادراك .

٦ ـ مراعاة ميول الأطفال لبعض المواد الدراسية حتى يسهل عليهم فهمها . وقد بين ابن خلدون مطالبة الاطفال بدراسة المسائل الصعبة

التى فوق مداركهم تؤدى الى اجهادهم اجهادا عقليا والى كراهيتهم الدائمة للعلم والتعلم ونادى بأن تكون المادة مناسبة فى سهولتها وصعوبتها لادراك الطفل . وانتقد من كانوا يقولون بتقديم المواد الصعبة للطفل ظانين ان ذلك يساعد فى تقوية تفكيره . وهذا ما يريده علماء التربية اليوم من قولهم : « الانتقال من السهل الى الصعب » .

فابن خلدون يتفق مع فلاسفة التربية الحديثة الذين يطالبون بمراعاة ميول الطفل وجعلها اساسا لتعليمه وينادون بأن نجاح الطفل فى اى عمل يساعده على النجاح فى غيره من الاعمال لان النجاح يؤدى الى النجاح ، وان مايساعده على النجاح .. يشبع مالديه من ميل فطرى الى حب التقدم والسيطرة .

فاذا كانت الدروس صعبة والمواد فوق مستواه صعب على الطفل فهمها وضاعت ثقته بنفسه لانه لم يجد الغذاء العقلى المناسب لنموه وتقدمه .

ولايمكننا هنا أن ننسى ما أظهره ابن خلدون من الآراء النفسية والملاحظات الدقيقة الخاصة بمراحل النمو وهى لاتختلف مطلقا عن آراء علماء النفس فى عصرنا الحاضر فقد بين ماتمتاز به مرحلة الطفولة من الطاعة والهدوء والاستقرار ولهذا عنيت التربية الاسلامية فى هذه المرحلة بالحفظ والاستظهار والاعادة والتكرار والانتفاع بما لدى الطفل من استعدادات ووضح ماتمتاز به مرحلة البلوغ والمراهقة من الميل الشديد الى الحرية والاستقلال فى العمل وكره القيود والعبودية .

٧ ـ البدء بتعلم اللغة العربية ثم دراسة القرآن الكريم .

حينما اختلط العرب بغيرهم من المسلمين فسدت اللغة العربية وكثر الخطأ واللحن ولهذا نادى القاضى أبو بكر بن العربى بالبدء بتعليم اللغة العربية وتقديمها على غيرها من المواد ثم الانتقال الى دراسة القرآن الكريم لان دراسته تسهل بعد معرفة اللغة العربية وقد وافقه ابن خلدون على هذا الراى قائلا أما أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول عهده بالتعليم فيقرأ مالايفهم فأمر يدل على الغفلة (١) .

فابن خلدون يرى مراعاة ادراك الطفل وفهمه ويطالبه بقراءة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٤ .

ما يستطيع أن يفهم وتعلم ما يمكنه أن يدركه . ويعترف ابن خلدون بصواب طريقة أبى بكر بن العربى ولكنه لاينصح باتباعها لان « العادات لاتساعد عليها » فقد كان المسلمون يبكرون بدراسة القرآن الكريم وحفظه ويزودون الطفل بكل مايستطيع أن يحفظه فى الصغر من القرآن للتبرك به خوفا من ان يحدث له شىء فى شبابه يقطعه عن العلم فيفوته القرآن . ولهذا كانوا ينتهزون الفرصة فى الطفولة ويكلفونه البدء بحفظ القرآن خوفا من أن يذهب وهو خال منه .

فهذه الرغبة فى التبرك بالقرآن الكريم وشدة التعلق به والخوف من ضياع الفرصة فى حفظه فى الطفولة تغلبت على مبدأ فى التربية نادى به ابن خلدون وهو : تعليم الطفل ما يستطيع فهمه ويناسب ادراكه ويشبع ميوله ورغباته وحاجاته .

٨ ــ مراعاة استعدادات الصبى الفطرية وغرائزه الطبيعية فى ارشاده الى المهنة .

لقد طالب علماء التربية الاسلامية وخاصة ابن سينا بمراعاة ميول المتعلم واستعداداته الفطرية وقدراته الطبيعية عند ارشاده الى المهنة التى يختارها فى مستقبل حياته لخدمة بلاده . وقد نادى ابن سينا بالعناية بدراسة ميول الصبى وجعلها أساسا لارشاده وتربيته حيث قال : « ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مواتية ولكن ما شاكل طبعه وناسبه وانه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ما كان أحد غفلا من الادب وعاريا من صناعة . واذن لأجمع الناس كلهم على اختيار اشرف الآداب وارفع الصناعات وربما نافر طباع الانسان جميع الآداب والصناعات فلم يعلق منها بشىء ... ولذلك ينبغى لمدير الصبى اذا رام اختيار صناعة أن يزن أولا طبع الصبى ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه فيختار له الصناعات بحسب ذلك » .

وهى نصيحة ثمينة لابن سينا ينصح فيها المربين من الآباء والمعلمين الذين يرومون اختيار صناعة من الصناعات لصبى من الصبيان ان يزنوا طبع الصبى أو ميله ويعرفوه ويختبروا قريحته وعقله وذكاءه حتى يختاروا له من الصناعات ماينناسب ميله وعقله وهذا رأى من أثمن الآراء فى التربية الاسلامية يتفق مع أحدث الاتجاهات فى التربية الحديثة . فهو يرى أن من الواجب البحث عما يناسب ميول الصبى وطباعه وغرائزه

ومراعاتها فى اختيار مايرغب التخصص به فى المستقبل فاذا كان يميل الى الدراسة الدينية وجه اليها واذا رغب فى الناحية العملية شجع عليهاواذا احب الدراسة العقلية او العلمية أرشد اليها واعطى الفرصة فى دراسة مايريد . وهذا ما ننادى به اليوم فى عالم التربية .

فمن كان يميل بطبيعته الى الادب والدراسة الادبية لايستطيع ان يكون فائقا فى البحوث العلمية . ومن كان يميل الى العلوم الرياضية لايمكنه ان يتفوق فى الآداب . وليس من السهل أن يظهر المتعلم التفوق والنبوغ والمهارة فى كل مادة يدرسها ولكنه يستطيع أن يتفوق وينبغ ويكون ماهرا فى المواد التى يحبها ويميل الى دراستها . أما المواد التى يكرهها وينفر منها فمن المحال ان يتفوق فيها . فكل متعلم ميسر لما خلق له . وهذا مايريده ابن سينا بقوله : وربما نافر طباع الانسان جميع الآداب والصناعات فلم يعلق منها بشىء ولو كان من السهل ان يحقق المتعلم كل مايبتغى لكان أديبا او عالما أو رياضيا او طبيبا كما أراد ولكن ميول الشخص وذكاءه وعقليته هى التى تتحكم فى فوزه او خيبته وتؤثر فى نجاحه أو اخفاقه .

وقد عنى عبد الرحمن بن الجوزى « المتوفى سنة ٥٩٧ هـ » كل العناية بتوضيح اهمية الاستعدادات الفطرية التى لدى الصبى ومراعاتها فى التدريس حيث قال : ان الرياضة لا تصلح الا فى نجيب والكودن(١) لا تنفعه الرياضة . والسبع وان ربى صغيرا لا يترك الافتراس . ومعنى هذا ان للذكاء والغباوة اثرا كبيرا فى نجاح المتعلم او اخفاقه فى الناحية العلمية وان النجيب الذكى يصلح للرياضة ويستطيع ان يدرسها ويفوق فى دراستها وان الكودن وهو البليد الغبى ، لاتنفعه الرياضة ولا يمكنه ان ينجح فى المواد التى تحتاج الى نجابة وذكاء ولا يستطيع ان يتفوق فيها والسبع مفترس بفطرته ولن تحوله التربية من حيوان مفترس الى حيوان اليف هادىء وديع لا يضرب احدا . لان الطبع يغلب التطبع . قال الشاعر العربى .

اذا ما المرء لم يولد لبيبا فليس بنافع قدم الولادة

وهو يريد بهذا أن الانسان اذا لم يولد ذكيا فان قدم الولادة اى كبر السن لن ينفعه ولن يؤثر فيه . واذا رزق احد الاغنياء والأثرياء طفلا فى منتهى الغباوة فلن يستطيع بغناه وثروته وعنايته بتربيته

(١) الكودن : الفرس الهجين والفيل والبغل والبرذون .

واحضاره أحسن المربين له أن يحوله من غبى الى ذكى أو فائق الذكاء (١) فالذكاء وراثى وهو هبة فطرية من الله بها يستطيع الانسان أن يحل مايعترضه من المشكلات فى الحياة . وأن النسبة الذكائية للشخص الواحد محدودة لاتزيد ولاتنقص بالتربية فالذكىذكى بفطرته والغبىغبى بطبيعته فالذكى وهو طفل ذكى وهو رجل ، والغبى فى طفولته غبى فى رجولته .

وقد أوصى الزرنوجى فى كتابه : «تعليم المتعلم» الا يختار الطالب وحده المادة التى يريد أن يتخصص بدراستها بل يشترك معه المدرس بما أوتى من خبرة وتجربة فى اختيار مايلائمه من العلوم . وليس لدينا مايمنع من أن يختار الطالب المواد التى يميل اليها مسترشدا برأي استاذه فى الاختيار بشرط ألا تهمل ميول الطالب من الناحية العلمية .

هذه الآراء كلها ثمينة تدل على عظمة فلاسفة الاسلام وماكانلديهم من افكار ناضجة فى تربية الطفل ونفسيته والوراثة والاستعدادات الفطرية والميول الطبيعية فى وقت كانت العقول فيه مغلقة والآراء فجة .

٩ ـ اللعب والترويح عن النفس :

لقد أحس علماء التربية الاسلامية بأن الطفل فى حاجة الى اللعب والترويح عن النفس بعد الانتهاء من دروسه . فحجرة الدراسة كان يسودها الهدوء والاصغاء للدرس والسكون ومحاولة التعلم فكان الطفل يشعر بالملل والتعب والحاجة الى الراحة والحركة والترويح عن النفس. لهذا كانوا يسمحون للطفل خارج حجرة الدراسة بالكلام والحركة والنشاط والمرح واللعب ليروح عن نفسه ويزيل مايحس به من السآمة والملل أو التعب .ويعد اللعب للترويح عنالنفس فىالتربية الاسلاميةهاما ومفيدا للطفل من النواحى العقلية والجسمية والخلقية . ولاعجب فقد نصح الغزالى أن يسمح للطفل باللعب اليسير لا باللعب الشاق بعدالانتهاء من دروسه لتجديد نشاطه بشرط ألا يتعب نفسه . فان منع الصبىمن اللعب وارهاقه بالتعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش (٢) .

---

(١) اقرأ الاختبارات العقلية ومقاييس الذكاء ، في الفصل الأول من الجزء الثانى من كتاب (في علم النفس) للمؤلف وشريكه .

(٢) الاحياء للغزالى ج ٣ ص ٦٨ .

وقد نادى العبدرى بضرورة اللعب والترويح عن النفس للطفل بعد ساعات الدرس . ولهذا تجد فى جميع المعاهد الاسلامية عطلة كل اسبوع من ظهر يوم الخميس الى نهاية يوم الجمعة وعطلة فى الاجازة الصيفية وعيد الفطر وعيد الاضحى والمناسبات الدينية الاسلامية كأول السنة الهجرية ومولد النبى .

وقال الغزالى : وينبغى أن يؤذن له (للصبى) بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب بحيث لايتعب فى اللعب فان منع الصبى من اللعب وارهاقه بالتعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه راسا .. وهذا كله يطابق ماتطلبه التربية الحديثة اليوم .

الفصل السادس عشر

الطرق العامة فى التدريس

طريقة دراسة القرآن الكريم :

كان الاطفال قبل تعلم القراءة والكتابة يحفظون سورا قصيرة من القرآن الكريم بطريقة التلقين بأن يلقنهم سيدنا بعض السور الصغيرة فيقرؤها أمامهم ويكرروها معه عدة مرات حتى يحفظوها عن ظهر قلب . وكان سيدنا يستعين بالعريف وكبار التلاميذ فى تعليم المبتدئين من الاطفال . ويؤخذ على هذه الطريقة عدم الاهتمام بشرح معانى السورالتى تحفظ فالاطفال كانوا يحفظون بطريقة التكرار من غير فهم للمعنى للتبرك بالقرآن الكريم وبث الروح الدينى .. روح الصلاح والتقوى فى نفوس النشء من الصغر ولاعتقاد المعلمين أن مرحلة الطفولة خير وقت للحفظ الآلى والتذكر . يقول الشاعر العربى :

ارانى انسى ماتعلمت فى الكبر ولست بناس ماتعلمت فى الصغر

وفى هذا القول نظر .

والقرآن الكريم أثمن ذخيرة فى نظرنا نحن المسلمين ، يجب تذكرها والاحتفاظ بها دائما والنقد الذى يوجه الى هذه الطريقة فى التربية الحديثة . .الحفظ من غيرفهم للمعنى ، فالتربية اليوم تتطلب تفهيم المعنى هذا من قول ابن قتيبه الدينورى فى كتاب عيون الاخبار . «اول العلم الصمت والثانى الاستماع . والثالث الحفظ . والرابع العقل » .

ولقلة من كان يعرف الكتابة فى العصر الاسلامى الاول كان المسلمون يعتمدون على ذاكرتهم اكثر من اعتمادهم على الكتابة . ولهذا عنى الادباء والشعراء من المسلمين بحفظ ما يسمعون من الأدب والشعر . وقد عرف العرب بالحفظ وقوة الذاكرة للمرانة المستمرة والتعود على الحفظ . وكانوا يذكرون :

ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم الا ما حواه الصدر

ويقولون :

اذا لم تكن حافظا واعيا فجمعك للكتب لا ينفع

أأحضر بالجهـــل فى مجلسى وعلمى فى الـكتب مســتودع

ويقولون :

استودع العلم قرطاسا فضيعه وبئس مستودع العلم القراطيس

فالعرب قبل الاسلام قد اعتادوا الحفظ قبل فهم المعنى ويبـدو هذا من قول ابن قتيبة الدينورى فى كتاب الاخبار : « أول العلم الصمت والثانى الاستماع . والثالث الحفظ . والرابع العقل . والخامس النشر »

وهناك من علماء الاسلام من رأى فهم القطعة قبل حفظها والبـدء بادراكها تمام الادراك قبل استظهارها ، كابن المبـارك حيث قال : أول العلم النية ثم الاستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر .

واننا نحبذ رأى ابن المبارك فى أن يبدأ الطفل التعلم بالاستعداد له والاصغاء الى الدرس والانتباه له حتى يفهمه ، ثم حفظه عن ظهر قلب ثم العمل بالعـــلم ثم نشر ما تعلمه . وقد نقد ابن خلدون فى مقدمته طريقة حفظ القرآن قبل تفهيم التلاميذ ما يحفظونه منه .

ولاجادة التدريس جعل مدرس خاص لتحفيظ القرآن الـكريم وآخر لتعليم الأطفال القراءة والكتابة والخط . وقد عنى المسـلمون عناية كبيرة بالخط . واتقنوه اتقانا تاما وعدوه فنا من الفنون الجميلة . ولكى لا تكون الآيات القرآنية معرضة للمحو من الألواح كانوا يفضـلون اختيار بعض الحكم والأبيـــات الشـــعرية فى تعليم الخط والقراءة والكتابة .

تدريس الشعر للأطفال :

لفلاسفة الاسلام طريقة خاصـة فى تدريس الشـــعر فقد كان المدرسون يختارون للاطفال الاشعار السهلة فى العبارة واللغة القصيرة الأبيات الخفيفة فى الوزن كى يســـهل عليهم حفظها وفهمها . وكانوا يراعون فى اختيارها ما قيل فى مدح الأخلاق النبيلة ، وذم الرذيلة كمدح الكرم وذم البخل والحث على حب الوالدين واطاعتهما . وفى هذا المعنى قال ابن سينا : « وينبغى أن يروى الصبى الرجز (١) ثم القصيدة فان رواية الرجز أسهل وحفظه امكن لأن بيوته اقصر ووزنه أخف . ويبدأ من الشعر بما قيل فى فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وعيب السخف وما حث فيه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف وغير

(١) الرجز : ضرب من الشعر أبياته قصيرة واوزانه خفيفة .

ذلك من مكارم الأخلاق (١) وقد حذروا من تعليم الاطفال أشعار الغزل والغناء » .

فدراسة الشعر كانت دراسة مباشرة للأخلاق وسبيلا من سبل بث الأخلاق الكريمة وقد فكر علماء الاسلام فى أثر الأوزان الشعرية فى نفوس الاطفال وغرس الأخلاق الحسنة بتلك الدراسة . وفى حفظهم للشعر الخلقى السهل العذب كانوا يربون الأطفال تربية جمالية ويبثون فى نفوسهم الذوق الفنى الجميل ويشبعون ميولهم الغريزية للناحية الموسيقية بالشعر الموسيقى وان لم يذكروا ذلك فى كتابتهم . ولا يمكننا ان ننكر انهم لم يراعوا فى اختيارهم ما يميل اليه الأطفال من شعر حول الحيوان والأزهار والقصص .

التدريس فى المراحل العالية :

١ ـ اللحاق بالمعاهد العليا بدون قيود أو شروط :

تبدأ مرحلة التعليم العالى فى التربية الاسلامية بعد سن البلوغ . وقد يدرسها الطالب فى خمس سنوات وقد يستمر فى دراسته العالية أكثر من عشر سنوات . ولم يكن اللحاق بالمعاهد العليا مقيدا بشروط خاصة ، بل كانت المعاهد ميسرة لكل راغب فى التعليم متعطش للعلم قادر على الدراسة فيدرس ما يشاء من العلوم ويختار من يريد من العلماء ويظل منتظما فى حلقات العلم مستمرا فى تلقيه مادام لديه رغبة فى العلم وميل للبحث ، وقد يتلقى الطالب العلم عن شيخه فى داره أو فى اى مكان . وكان المسلمون يقصدون المسجد للعبادة أو للدراسة فى حين ان المدرسة كان يؤمها المتعطشون للعلم الراغبون فيه وهذا كله يدل على روح الحرية والديمقراطية فى التربية الاسلامية .

٢ ـ الرحيل فى سبيل طلب العلم :

وفى المرحلة العالية كانت التربية الاسلامية تمتاز بالرحلات فى طلب العلم ، والمقصود بالرحلة ان ينتقل الطالب من بلدة الى أخرى لتلقى العلم مباشرة عن استاذ كبير فى مادة من المواد . وقد تستغرق الرحلة احيانا عدة سنوات يتنقل فيها الطالب فى المدن الاسلامية المختلفة يقابل فيها

---

(١) كتاب السياسة لابن سينا ص ١٢ .

مشهورى العلماء ويأخذ العلم من منابعه الأولى . وقد يسافر الطالب الى اقصى بلد اسلامى لطلب العلم على احد الشيوخ ولم يعبأ الطلاب ببعد المسافة أو مشقة السفر والرحلة فى سبيل تلقى العلم . وكثيرا ماكان طلبة طبرستان وبخارى يطلبون العلم فى مصر وطلبة الأندلس يتلقون العلم فى اصفهان . وكان العلماء من المسلمين يعاملون معاملة أبناء امة واحدة هى الأمة الاسلامية مهما اختلفت بلدانهم الأصلية . وكان للرحلات أثر عظيم فى النهوض بالكبار من المتعلمين وفى تربيتهم من النواحى العلمية والعملية والعقلية والاجتماعية والدينية والثقافية .

ويحكى عن ابن الاعرابى ــ وقد كان لغويا مشهورا بالكوفة فى القرن الثانى من الهجرة ــ انه راى فى مجلسه يوما رجلين يتحادثان فقال لاحدهما : من اين انت ؟

فاجاب : من اسبيجاب (وهى مدينة قريبة من الصين فى اقصى بلاد الشرق)

وقال للآخر : من اين انت ؟

فاجاب : من الأندلس .

فعجب لذلك :

وقد شرح ابن خلدون الأسباب فى شدة عناية المسلمين بها حيث قال :

« والسبب فى ذلك أن البشر يأخذون معارفهم واخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما والقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة الا ان حصول الملكات المباشرة والتلقين اشد استحكاما واقوى رسوخا . فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها . فالرحيل كان لتلقى العلم عن العلماء . ومحاكاتهم فى علومهم واخلاقهم ومعرفة مذاهبهم » .

ويرى الحاج خليفة فى كتابه (كشف الظنون) ما رآه ابن خلدون فى الرحلات العلمية ويزيد على قوله : ان لقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد الطالب فى معرفة الاصطلاحات وتمييزها بما يراه من اختلاف طرقهم .

والحق أن الغرض من الرحلة كان فى الاصل جمع الاحاديث النبوية حينما احس المسلمون بوجوب تدوين الأحاديث وتمحيصها لأنها هامة

جدا من الناحية الدينية ومصدر من مصادر الدين ، فرحل العلماء الى جميع جهات الامبراطورية الاسلامية فى القرن الثانى من الهجرة للاتصال بالعلماء والرواة الذين كانت لهم صلة بمن عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عاصروا الصحابة فقد ذكر عن ابن شهاب عن ابن عباس انه قال :

« كان يبلغنا الحديث عن رجل من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فلو اشاء ان ارسل اليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت ولكنى كنت اذهب اليه فأقبل على بابه حتى يخرج الى فيحدثنى (١) » .

وقال يحيى بن سعيد : انى كنت اسير الليالى والايام فى طلب الحديث الواحد .

ثم استمرت الرحلات فى سبيل طلب العلم حتى صارت من دعائم التربية الاسلامية وقد استفاد الطلبة من السفر وزيارة البلاد المختلفة والاتصال بالائمة والعلماء والادباء والفضلاء ... كثيرا من التجارب العملية المفيدة والآراء العلمية الثمينة .

٣ ـ حرية الطلاب والاساتذة :

لم يكن فى المعاهد الاسلامية فصول لكل فرقة من الفرق الدراسية ولا نقل من فرقة الى اخرى أو من صف الى صف وكان الطلاب احرارا فى حضور دروسهم واختيار اساتذتهم وكان الاساتذة احرارا فى تحديد عدد المحاضرات التى يلقونها كل اسبوع واختيار الأوقات التى يريدونها بعد صلاة الفجر او عند شروق الشمس او بعد صلاة الظهر او بعدصلاة العصر او بين المغرب والعشاء . وكان بعضهم يلقى محاضرة كل يوم وبعضهم يلقى محاضرة كل اسبوع . وحينما تبدأ الصلاة تتوقف المحاضرات حتى ينتهى المصلون من الطلاب والاساتذة من صلاتهم . وبعد الانتهاء من الصلاة تبدأ المحاضرات فى حلقات . ولكل حلقة استاذ خاص يقوم بالتدريس للطلبة الذين يحضرون فيها .

٤ ـ تنوع اساليب التدريس وطرقه فى المعاهد العالية :

كانت اساليب التدريس فى المعاهد الاسلامية العالية متنوعة وطرقه متعددة ولم يقتصر الاساتذة على طريقة خاصة فى تدريسهم

---

(١) ارجع الى جامع بيان العلم وفضله للنمرى القرطبى جـ ١ ص ٩٤ .

فاحيانا كان العالم من العلماء يملى درسه على الطلبة من ذاكرته وليس فى يديه مذكرات أو كتب يملى منها وهذا يدل على تمكنه من مادته . واذا كان عددهم كبيرا اختار واحدا أو اثنين من المعيدين لاعادة ما أملاه عليهم كى لا يفوتهم شيء مما يقوله .

قال ابو العباس ثعلب عن ابن الاعرابى اللغوى المعروف بالكوفة : شاهدت مجلس ابن الاعرابى وكان يحضره زهاء مائة انسان . ولقداملى على الناس ما يحمل على جمال ولم يكن بيده كتاب (١) وهذا يدل على غزارة مادته وسعة اطلاعه وثقته بنفسه .

★ وقد قيل ان السديد محمد بن وهبة الله كان اماما فى عصره وتولى الاعادة (اى كان معيدا) بالمدرسة النظامية ببغداد وان الشيخ ابا اسحق الشيرازى الفيروزابادى قد صحب القاضى الطبرى وكان ينوب عن الطبرى فى مجلسه وتدريسه ورتبه معيدا فى حلقته .

واحيانا كان الطالب يقرأ قطعة صغيرة من الكتاب الذى يدرسه الاستاذ للطلبة لتكون مقدمة لدرسه ثم يبدأ الأستاذ بشرح معنى تلك القطعة وتوضيحها والتعلق عليها حتى يفهم الطلبة المقصود منها . ويتبع المدرس فى طريقته الخطوات الآتية :

أولا : يبدأ بقراءة النص وشرحه .

ثانيا : يأتى المدرس بالآراء المختلفة فى الموضوع ويوضحها .

ثالثا : يدلى برأيه الخاص فى الموضوع ويؤيده بالدليل .

رابعا : يوازن بين موضوع البحث والموضوعات المشابهة له .

خامسا : يعطى الطلبة الفرصة فى ان يسألوا ما يشاؤن من الأسئلة ويجيب عنها ولا يترك درسا حتى يفهمه الطلبة كل الفهم .

وكان المعلمون من المسلمين يلقون دروسهم بهدوء ويعملون بكل اخلاص ويتحلون بالآداب العالية والاخلاق الكريمة لايحقدون على غيرهم ولا يظلمون سواهم ولا يفكرون فى النواحى المادية الخاصة بالدرجات والعلاوات والترقيات لأنهم زاهدون قانعون بالضروريات للمحافظة على الحياة .

---

(١) ارجع الى كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان ج ١ ص ٦٢٣ .

٥ ـ طريقة المحاضرات :

كان المحاضر يعد محاضرته ويدونها نقطة نقطة ثم يتكلم عن كل نقطة كلام استاذ متمكن من مادته فيدون الطلبة ما يفهمونه من الآراء في مذكراتهم الخاصة ولم يكن المحاضرون ممن يحفظون محاضراتهم ويقولون ما لا يفهمون بل كانوا يفهمون كل فكرة يذكرونها ويشرحونها بوضوح. ولم يكونوا ممن يعتمدون على ما في أيديهم من مذكرات فاذا أخذت هذه المذكرات منهم وقفوا حيارى لا يستطيعون أن يذكروا شيئا لطلابهم . فقد كانوا علماء حقا واسعي الاطلاع لا يحتاجون الى النظر في كتب أو مذكرات في أثناء المحاضرات .

وقد شرح ابن خلدون طريقة المحاضرات في مقدمته ونقد اعتماد الطلاب على المتون والمختصرات في العلوم وشجع الاسهاب والسهولة في الموضوعات ثم ذكر آراء ثمينة لا تختلف عن الآراء في التربية الحديثة اليوم نلخصها فيما يلي :

لكي ينتفع الطالب بالمعلومات يجب الا يتلقاها المتعلم مرة واحد بل يتدرج معه فيها ويأخذها شيئا فشيئا . وينبغي ان يبدأ المحاضر درسه باعطاء فكرة عامة مجملة عن الموضوع يلخص فيها أصول الباب وهي النقط الرئيسية في محاضرته مع تجنب التفاصيل المعقدة التي يصعب على الطلاب فهمها في بدء الدرس .

ويراعي في ذلك قوى عقله (عقل الطالب) واستعداده لقبول ما يرد عليه ثم يعود ثانية الى الموضوع فيرفعه في التلقين عن تلك المرتبة الى مرتبة أعلى منها يستوفي فيها الشرح والبيان . وينتقل من الاجمال الى التفصيل ويذكر للطالب نواحي الخلاف في الموضوع وأوجه النظر . ويعيد الدرس مرة ثالثة . يعالج فيها الموضوع بطريقة أكثر عمقا فلا يترك عويصا ولا بهما ولا صعبا الا وضحه وفتح له مغلقه (١) .

فابن خلدون ينادي بالتدريج في اعطاء المادة حتى يفهم الطلبة الدرس ويتضح في نفوسهم . ويتفق مع علم النفس في اعطاء المتعلم فكرة عامة اجمالية عن الموضوع ثم الانتقال الى تفصيل كل نقطة من الدرس بعد الاجمال . ويرى مراعاة استعداد الطالب من الناحية العقلية فالذكي يفهم المحاضرة بمجرد استماعها للمرة الاولى ومن كان فوق المتوسط في الذكاء

---

(١) مقدمة ابن خلدون بتصرف ص ٤٨٩ .

يفهمها بعد استماعها مرتين والمتوسط يدركها بعد الاصغاء اليهـــا ثلاث مرات وينادى بذكر النقط الهامة فى البدء ثم شرحها بالتدريج ثم معالجتها بتعمق فى المرة الثالثة بحيث يفهم كل طالب الدرس فى النهـــاية فهما جيدا ٠

والعبدرى يطالب بفهم الموضوع ودراسة الآراء المختلفة فيه واختيار الراى الصحيح والموازنة بينه وبين غيره ٠ ومن هـــذا كله نرى أن طرق التدريس فى التربية الاسلامية منطقيـــة معقولة ولا تختلف عن الطرق الحديثة فى التربية ٠

٦ ـ طريقة المناظرة :

كانت المناظرة من مميزات طرق التربية الاسلامية ولا ينـكر أحد أثرها فى شحذ الذهن وتقوية الحجة والتمرن على سرعة التعبير والفوق على الأقران وتعويد المناظرين الثقة بالنفس والقدرة على الارتجال ولهـذه الاسباب عنى بها المسلمون عناية كبيرة وعدوها طريقة من طرق التعليم وأشاروا اليها فى كتبهم الأدبية ٠ فقد تناظر الامام الغزالى مع مشهورى العلماء وقادة الفكر فى معسكر الوزير نظام الملك وانتصر عليهم جميعا ٠ وقال السبكى (١) يصف اسماعيل بن يحيى بأنه جبل من العلم ، عـلى جانب عظيم من المهارة فى المناظرة ٠ وقال عنه الامام الشافعى رضى الله عنه : لو ناظر الشيطان لغلبه ٠

وكان العلماء يشجعون طلبتهم على المناقشة والمنـــاظرة ويوجبون عليهم التمرن عليها ٠ وكان الطالب يخالف أستاذه فى الرأى أحيـانا مع مراعاة التأدب والاحترام ٠

وقد نقد ابن خلدون الركود الذهنى فى بلاد المغرب فىالقرن الرابع عشر الميلادى وعزاه لرداءة الطرق فى التدريس لانها أهملت المناقشـــة والمناظرة فى طريقة التعليم حيث قال :

« وأيسر طرق هذه المملكة فتق اللسان بالمحاورة والمنـــاظرة فى المسائل العلمية فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها ٠ فنجد طـــلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجـــالس العلمية ،

(١) فى كتاب طبقات الشافعية الكبرى جـ ١ ص ٢٢٨ .

سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون · وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم ·

فابن خلدون يرى أن المناظرة فى المسائل العلمية تساعد على فهمها وقدرة التعبير عنها وينتقد سكوت الطلبة وعدم تكلمهم فيما عرفوا من العلوم كما يأخذ عليهم العناية بالحفظ أكثر مما تقضيه الحاجة · قال الشاعر :

العلم بالفهم وبالمذاكرة والدرس والفكرة والمناظرة

ويرى الزرنوجى أن قضاء ساعة واحدة فى المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من مكث شهر كامل فى الحفظ والتكرار ·

وقد كان للعناية بالمناقشة والمناظرة والحوار بالاسئلة والاجوبة اثر حيوى كبير فى طالب العلم جعله يشترك فى أن يعلم نفسه بنفسه ويعتاد حسن التفكير وجودة التعبير والقدرة على النقد والقوة فى الاقناع والاعتماد على النفس وحرية الفكر ·

والحق ان علماء الاسلام كانوا مولعين كل الولع بالمناظرة حتى جعلوها من أنواع التسلية والترويح عن النفس والمتعة الادبية · وانالميل الى العلنية والجهر بالرأى فى التربية الاسلامية قد شجع الطلاب والعلماء على المهارة فى الخطابة والقدرة على الارتجال والتعبير عن الافكار·والخطابة الارتجالية تراث عربى خالد افتخر به المسلمون فى جميع الأجيال · وبالخطابة والمناظرة استغنوا عن كتابة المقالات والرسائل فى كثير من الأحيان ·

ولنذكر هنا على سبيل المثال احدى المناظرات الهامة التى حدثت فى مجلس هارون الرشيد وهى مناظرة لغوية مشهورة حدثت بين سيبويه والكسائى وقد زعم الكسائى فيها أن العرب تقول : « كنت أظن الزنبور أشد لسعا من النحلة فاذا هو اياها » .

فقال سيبويه : بل الصحيح : « فاذا هو هى » فتشاجرا طويلا واتفقا على مراجعة عربى خالص لا يشوب كلامه شىء من كلام أهل الحضر· وكان الرشيد شديد العناية بالكسائى لأنه كان معلما له · فاستدعى عربيا وسأله فقال كما قال سيبويه ·

فقال الرشيد له : نريد أن تقول كما قال الكسائى ·

فقال العربى : ان لسانى لا يطاوعنى على ذلك فانه ما يسبق الا الى

الصواب فقرروا معه أن شخصا يقول : قال سيبويه كذا وقال الكسائى كذا فالصواب مع من فيهما فيقول العربى : مع الكسائى ٠

فقال العربى : « هذا يمكن »

ثم عقد لهما المجلس واجتمع ائمة هذا الشأن وحضر العربى وقيل له ذلك فقال : الصواب مع الكسائى وهو كلام العرب ٠

فعلم سيبويه انهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائى فخرج من بغداد (١) ٠ وما كنا ننتظر أن يعامل سيبويه هذه المعاملة وان تغير الحقائق بالتحايل وان يتعصب للكسائى مع أنه كان مخطئا فى قوله ٠ فلما أحس سيبويه بالظلم والتحامل عليه والتعصب للكسائى بدون حق حتى ترك بغداد وخرج منها ٠

ولنذكر أيضا مناظرة أوردها أبو حيان التوحيدى فى كتابه الامتاع والمؤانسة (٢) حيث قال : ان مجلس الوزير ابن الفرات انعقد مرة سنة ٣٢٦ هـ وفيه أبو سعيد السيرافى وابن فراس وأبو بشر متى ورسول ابن طغج من مصر وكثير غيرهم ٠

وقال الوزير : ألا ينتدب منكم انسان لمناظرة متى فى حديث المنطق؟ فانه يقول لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين الا بما حويناه من المنطق ٠٠٠ فاحجم القوم ٠

فقال ابن الفرات : والله ان فيكم لمن يفى بكلامه ومناظرته فانى لأعدكم فى العلم بحارا ٠

فقال أبو سعيد السيرافى : أعذر أيها الوزير فان العلم المصون فى الصدر غير العلم المعروض فى هذا المجلس على الاسماع المصيخة والعقول الحادة ٠

فقال ابن الفرات : أنت لها يا أبا سعيد فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك والانتصار لنفسك راجع الى الجماعة بفضلك ٠

فقبل السيرافى ودارت مناقشة طويلة ممتعة ذكرها كلها أبو حيان التوحيدى نذكر منها مسألة صغيرة وصلت اليها المناقشة ٠

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٥٤٩ .

(٢) جـ ١ ص ١٠٨ .

قال أبو سعيد السيرافى : ما تقول فى قول القائل : « زيد أفضل الاخوة ؟ » .

قال متى : صحيح .

قال أبو سعيد : فما تقول ان يقال : « زيد أفضل اخوته ؟ »

قال متى : صحيح أيضا .

قال أبو سعيد : فما الفرق بينهما مع الصحة ؟

فغص متى بريقه ولم يجب .

فقال ابو سعيد أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة المسألة الاولى جوابك عنها صحيح وان كنت غافلا عن وجه صحتها . والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح وان كنت أيضا ذاهلا عن وجه بطلانها .

قال متى : بين لى هذا ؟ .

قال أبو سعيد : ليس هذا مكان التدريس اذا حضرت الحلقة استفدت .

قال الوزير ابن الفرات : تمم لنا كلامك فى شرح المسالة حتى تكون الفائدة ظاهرة للمجلس .

قال أبو سعيد : زيد افضل الاخوة صحيح لأن زيدا بعض الاخوة وأحدهم فكأنك تقول : حمارك أفره (١) الحمير . واما زيد أفضل اخوته فخطأ لأن زيدا ليس بعض اخوته اذ ان اخوته غيره ، فكأنك قلت : حمارك افره البغال .

٧ ـ الطريقة التى كان الطالب يتبعها فى التعلم فردية :

(أ) كان نظام التعليم فرديا فى التربية الاسلامية ، فالطالب يتمتع بقسط كبير من الحرية يختار من المواد الدراسية ما يناسب ميوله الفطرية واستعداده العقلى ويختار العالم الذى يتلقى عنده العلم ويحضر ما يلقيه أستاذه من المحاضرات . ويقرأ المادة ويدرسها ويعدها قبل الدرس حتى يفهمها ويسأل أستاذه فيما صعب عليه منها . وهو حر غير مقيد بنظام

---

(١) الفاره : الحاذق بالشيء والمليح الحسن ومن الدواب الجيد السير .

معين ولا بجدول أوقات دروس وليس مطالبا بامتحانات خاصة للنقل من صف الى آخر أو من فرقة الى أخرى ٠

(ب) التعلم بالحفظ والاستظهار :

كان العلم بالحفظ والاستظهار طريقة مألوفة فى الامم القـــديمة والحديثة وكان علمـاء الاسـلام يعنون بحفظ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة عناية كبيرة ٠ فقد ذكر ابن خلكان في كتابه (وفيات الاعيان) أن ابن حنبل حفظ عن ظهر قلب ألف ألف حديث ، فى حين ان البخارى قد حفظ وهو صبى ما يقرب من خمسة عشر ألف حديث ٠ وذكر ابن عساكر عن داود الخفاف انه قال : « املى علينا ابن راهويه أحد عشر ألف حديث من الذاكرة ثم اعادها دون أن ينقص أو يزيد حرفا واحدا ٠ وهذا دليل على قوة ذاكرته » ٠ وقال الخليل بن أحمد : « ما سمعت شيئاالا كتبته ولا كتبته الا حفظته وماحفظته الا نفعنى » فلحرص العلماء كانوا يكتبون كل ما يسمعون ويحفظون ما يـكتبون وينتفعون بما يحفظون ولا يمكنهم الانتفاع بما حفظوه الا اذا فهموه جيدا ٠

وقال موفق الدين البغدادى : « واذا قرأت كتابا فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه ، وتوهم أن الكتاب قد عدم وانك مستغن عنه لا تحزن لفقده » وهذا يدل على ان الطلاب كانوا يعنون بالفهم عنايتهم بالحفظ وكانوا يحفظون الكتاب بحيث اذا ضاع او فقد استغنوا عنـه ولم يحزنوا لضياعه أو فقده ٠

وفى الادب العربي أمثلة كثيرة لمن كانوا يحفظون القصيدة الطويلة بعد أن يسمعوها من قائلها مرة واحدة لما أوتوا من قوة كبيرة فى التذكر٠

وقد عزا بعض فلاسفة الاسلام القدرة على التذكر الى عوامل نفسية ومادية كالاستمرار فى المذاكرة والاعادة والمراجعة وبذل الجهد فى الدرس والبعد عن المشاغل والآلام والتفرغ للعمل والدراسة فى جو من الهـدوء والايمان ٠ واننا نتفق معهم فى كل ما أبدوه من الاسباب ٠

وان من يفحص عن الامر يجد أن العناية بالذاكرة كانت أثرا من آثار

---

(١) في كتاب تاريخ دمشق جـ ٢ ص ٤١٢ .

التقاليد الدينية فى بدء الاسلام • ففى الوقت الذى ظهر فيه الاسلام كان معظم العرب أميين لايقرءون ولايكتبون ، فاعتمدوا على ذاكرتهم كل الاعتماد فى تذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتعليمات الدينية والقواعد الاسلامية والأشعار والقصص العربية •

ومع عناية علماء الاسلام بالحفظ والذاكرة لم يهملوا مطلقا العنـاية بالتفكير فيما يحفظ وشرحه وتحليله وفهمه حق الفهم • فقد جعلوا الحفظ وسيلة لا غاية لقلة من يجيد القراءة والكتابة فى بدء الاسلام • وقد نادى الحاج خليفة فى كتاب : « كشف الظنون » باهميـــة الفهم والاستنباط والانتقال من المنطوق الى المفهوم والمدلول • وقال موفق الدين البغدادى : « ولا تظن أنك اذا حصلت على علم فقد اكتفيت بل تحتـاج الى مراعاته لينمى ولا ينقص » • ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر واشتغال المبتدىء بالحفظ والتعلم ومباحثة الأقران واشتغال العالم بالتصنيف فالبغدادى ينصح المتعلم بالمذاكرة والتفكير والحفظ والتعلم ومناقشة الزملاء للمحافظة على ما تعلمه وتنميته كما ينصح العالم بالتصنيف أو التاليف ليزداد فى بحثه وعلمه وتثبت المعلومات فى ذهنه •

وقال الشيخ برهان الاسلام ناصحا المتعلم : «الا يكتب شيئا لايفهمه لان ذلك يورث كلال الطبع ويذهب الفطنة وينبغى ان يجتهد فى الفهم من الاستاذ ويكثر من التامل والتفكير » •

فهل بعد هذا يستطيع مدع أن يدعى ان المسلمين كانوا يعنون بحفظ المادة ويهملون فهمها ؟ الحق ان طريقة التعليم فى التربية الاسلامية عنيت بفهم المادة عنايتها بالحفظ ولم تهمل الفهم والتامل والتفكير فيها مطلقا • فالطلبة كانوا يكثرون مناقشة أساتذتهم وكانت الأسئلة تنهال عليهم من كل صوب بعد الانتهاء من المحاضرة • وكان العلماء لا يتركون نقطة الا بعد فهمها جيدا • وحرية السؤال كانت مكفولة للجميع • وكان للطالب الحرية المطلقة فى ابداء رأيه وقد يختلف مع أستاذه فى الرأى أو الفكرة • فقد قيل: ان ابن العباس خالف أساتذته فى الرأى وهم عمر وعـلى وزيد بن ثابت وهم من المسلمين المشهورين كما اختلف الامام مالك مع معظم أساتذته فى بعض الآراء ثم خالفه فى الرأى كثير من تلاميذه (١) •

---

(١) ارجع الى كتاب الاسلام والحضارة العربية لكرد على جـ ٢ ص ٨ •

٨ ـ الامتحانات :

فى التربية الاسلامية لم يطلب من المتعلمين تادية امتحان بعدالانتهاء من الدراسة كالامتحانات التى تعقد فى عصرنا هذا · وقد ذكر ابن أبى اصيبعة (١) حالة واحدة جاء فيها انه عقد امتحان لأطباء بغداد فى عهد الخليفة المقتدر « فى القرن العاشر الميلادى » بحضرة سنان بن ثابت الذى كان يمتحن الاطباء امتحانا شفهيا ·

وبدلا من الامتحان كان الأساتذة يعطون طلبتهم الأكفاء شهادة أو اجازة ينصون فيها على أن الطالب أتم دراسة منهج معين تحت اشراف الأستاذ فلان ، دون أن يؤدى الطالب امتحانا · والغرض من الاجازة الاقرار بكفاية الطالب واجتهاده وانكبابه على العلم وتفرغه للدراسة والبحث · وكانت الاجازة العلمية شهادة شخصية من الاستاذ لتلميذه وليس فيها عنوان معهد معين · ولا يذكر فيها لقب علمى ·

---

(١) فى كتاب طبقات الأطباء .

فهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد عن التربية الاسلامية	٣
الفصل الاول :	
اغراض التربية الاسلامية	٧
الفصل الثانى :	
التربية الاسلامية تربية مثالية	١٣
الفصل الثالث :	
العلم والتعليم فى نظر الاسلام	٣٣
الفصل الرابع :	
اين كان المسلمون يتعلمون ؟	٤٥
الفصل الخامس :	
التعليم فى الحلقات والمجتمعات الادبية	٦١
الفصل السادس :	
التربية المدرسية العالية	٦٩
الفصل السابع :	
التعليم فى دور الكتب	٧٥

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن :

التعليم فى البادية ٨٧

الفصل التاسع :

التربية والاخلاق فى الاسلام ٩٣

الفصل العاشر :

الاســـلام وتعليم المراة ١٠٧

الفصل الحادى عشر :

المعلم والتلميذ فى الاســـلام ١١٧

الفصل الثانى عشر :

العقوبة فى نظر علماء الاسلام ١٣١

الفصل الثالث عشر :

المبادىء الأساسية فى مناهج التربية الاسلامية ١٣٩

الفصل الرابع عشر :

المبادىء التى روعيت فى التربية الاسلامية عند

اختيار المناهج الدراسية ١٥١

الفصل الخامس عشر :

القواعد الأساسية للتربية الاسلامية ١٦١

الفصل السادس عشر :

الطرق العامة فى التدريس ١٧١